

طالب الرفاعي
في الهنا

رواية



دار الشروق

رواية

في الـهنا

Here and Now

طالب الرفاعي

Taleb Alrefai

دار الشروق

إلى زوجتي شروق
حبيبة وصديقة مخلصه

- ١ -

وحدى، هُنا في غرفتي رقم «٣٣»، في الدور الأول، من مبنى «المدرسة القبلية»، التابع للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، في منطقة «المباركية»، قرب أسواق الكويت القديمة. يلازماني ألم «الدسك» في ظهري. يقرصني فيسري نبض التنميل والخدر إلى ساقى اليسرى. أنصاع إليه، أهبّ من مقعدي، أقف بين ساعة وأخرى، أتمشى عادةً خطواتي في صحن مكتبي. أحرك جذعي أتمايل يمنة ويسرة.

(قلتُ اوقفي لي وإرفعي البوشية خَليني أروي ضامر العطشاني)

شجياً لَوَّحتَه السنون، ينساب صوت المطرب «محمود الكويتي»، ينتشر ملوِّناً جدران غرفة مكتبي المغلقة، يترنم بلحن حمد الرحيب، ل «سامرية»، الشاعر خميس بن محمد الشمري.

قلتُ اوقفي لي وإرفعي البوشية

لحظة خطرت لي فكرة الرواية، قفز اللحن لرأسي، أمسك بي، راح ينبعث بين أن و... ومراراً تساءلت: ما الذي يأتي باللحن إليّ مصاحباً للكتابة؟

تتسرب نغمات «العود» آخذه طريقها إلى قلبي. أتخيل وَلَه خميس الشمري بمحبوبته، ورغبته المحرقة، وتذرعه متوسلاً إياها أن تهب واقفة ليراها تتهادى راقصة أمام عينيه، بعد أن ترفع «البوشية» كاشفة عن وجهها، عله يروي عطش روحه!

خَليني أروي ضامر العطشاني

محيرٌ يرقص أمامي السؤال: أي سرٍ يجعل الجسد وصلًا يُروِّي ظمًا
حارقًا يكاد يحطم روح صاحبه؟

صباح كل يوم أدخل غرفتي وأغلق باب قلبي عليّ. أمضي ساعات
نهارى بين القراءة والكتابة.

قبل قليل اتصلت بي كوثر، رأيتُ رقمها على شاشة تلفوني النقال:
«ألو».

قلتُ، فأسرع صوتها:

«صباح الورد».

ودودٌ حسّها، حرّك شيئًا من سرور غافٍ في صدري، فحييتها:

«وصباحك».

«سأمرّ عليك».

«متى؟».

«لا أدري».

قالت على طريقتها التي أعرف، وأضافت:

«يمكن غدًا، لست متأكدة».

«يا هلا».

«أخبار فادية؟».

قاطعتني سائلة عن ابنتي الصغيرة، فمرّ الابتسام على وجهي:

«تعالى لزيارتنا في البيت لرؤيتها».

«سأفعل، سلامي لها ولشروق».

وكما انبعث صوتها فجأة انسحبت قائلة:

«باي».

عدتُ إلي هُناي راميًا روعي على بساط اللحن الناعم، بينما رفع
الهدوء رأسه ثانية يغشي غرفة مكتبي، ومن ركنها أطلت الوحدة
تشير لي فاتحة صدرها، وهامسة بخبث:

خليني أروي ضامر العطشاني

«إذا استلمتُ ورقةً..».

همستِ أنتِ تُحدثين نفسك، فلسعت العبارة لسانك. هزّة خوفٍ عابرة أجمت الكلام في فمك وخاطرك. وكما لو أنك تهربين من تكملة الجملة، عدتِ لاسترسالك بأفكارك، واسترخائك على فراشك، وسط صمتٍ غافٍ يلفّ غرفة نومك. ما زلتِ تشعرين بشيء من الوحشة يشاركك لحظتك. قرابة نصف السنة مضت عليك وأنتِ تنامين وحدك هنا، في شقتك الخاصة.

يمرّ السؤال بك: كيف تألف وتطمئن أرواحنا للمكان؟ كأنك زائرة جئت بالأمس إلى الشقة! متى ستتعقد العلاقة بينكما؟ متى ستمشين دون حذر، تسلك خطوتك دربها خفيفة عارفة انحناءات الزوايا الماكرة، كما كنتِ تمشين في بيت «الدسمة».

هناك، في بيت أبيك في منطقة «الدسمة» ولدتِ وذاقت قدماك الصغيرتان رجفة الوقوف الأول المتأرجح على استواء الأرض، ودبتا بخشية الخوف تتعلمان سرّ المشي.. في ذاك البيت ركضت طفلة مدللة. حفظت خطوتك رسم المكان. وعلى مهلٍ تخللت رائحة بيتكم الدافئة مسام روحك، ولم تزل تسكن قلبك!

أضواء الساعة الحمراء المشعة قرب رأسك تشير إلى الخامسة والربع فجراً. الشمس في الخارج تتمطى بكسل، تقاوم كشف ضياء وجهها.. البحر ينتظر تحيتك الصباحية اليومية خلف ستارة النافذة، مثلما تنتظرين أنت رؤية منظره بامتداده على حد بصرك.

نظرتِ إلى السقف، فتحرك السؤال مكتوماً في فمك: هل أنا خائفة؟

أنتَ مشاري، شخصية مرموقة في المجتمع، باسمك ولقب عائلتك العريق، وعائلة زوجتك، ونفوذ وظيفتك. مظهرك الرجولي يشع بالجادبية، ويجعل أقرب العاملين معك يقف معجبًا بهدوئك وأدبك ولباقتك. أنتَ «شاطر»، راسم صورتك بامتياز. هيبتك ووسامتك ونظرة عينيك، وملابسك الأنيقة وساعة يدك وحذاؤك اللامع وخطوة مشيتك.. أنتَ من الخارج تغري أي فتاة أو امرأة بالتمسح فيك.. أنا كوثر رفعت عنك غطاءاتك الهشة، وعرفتُك: «من بره هالله هالله ومن تحت يعلم الله». لكن، هل فعلاً عرفتُك؟ أحيانًا أشعر أنني أعرفك تمامًا، ويغمرنني الحزن في مرات كثيرة حين أكتشف كأني لا أعرفك!

كأن الليل والنوم كَوَّما أتربة الخوف فوق قلبي. استيقظتُ في غرفتي وعلى سريري، والأسئلة تفتح ممددة إلى جانبي، وكأني لم آخذ قراري وأحسم أمري! اليوم سنعقد قراننا. أخيرًا تصبح زوجي وأصير أنا زوجتك بورقة شرعية.

لماذا أنا خائفة؟

في وقت ما، أطلقت عليك بيني وبين نفسي لقب: رجل اللذة العابرة. تعشق كل ما يمرّ عابرًا دون تبعات. في أول مكالمة بيننا بصفتي المسؤولة عن حسابات الشخصيات المهمة في البنك، نقلت لي قناعتك عن تعاملات الأسهم في سوق الأوراق المالية:

«تخلّصي من أسهمي بمجرد ارتفاع أسعارها، لا أطيق البقاء مربوطًا إلى سهم».

لا تطيق أن تكون مربوطًا إلى أي سهم، ولا أي امرأة.. أنتَ رجل يريد لسمعة حياته الزوجية في العلن أن تبدو ناصعة البياض، تنعم بالاستقرار والهدوء بعيدًا عن أي أقاويل أو إشاعات، ويريد لقلبه أن يخفق بمتعة اللهو مع أي امرأة أخرى غير زوجته.

قبل ثلاثة أشهر، صادفتك تمشي مع زوجتك المتأنقة وابنتك الصغيرة في الجزء الجديد من مجمّع «الأفنيوز». فجأة اهتز قلبي، كأن إصبعًا حادة طرقت عيني. عصف الضيق بصدري، وأمسك ثقل البطء بخطوي. لا أدري ما الذي جرى لي! تذكرت وعودك لي، وأنا على وشك

الارتباط. جاءت إليّ هيئة وجهك المتباكي وأنت تقسم أنك لم تحب بحياتك امرأة إلا أنا، وركض أمامي الكثير. تبعثرت لا أعرف ماذا أفعل! أردت أن أتقدم للسلام عليك، أمدّ كفي إليك، ناظرة في عينيك اللتين أعرف، أقول لك بنبرة تزلزلك: ما دامت رغبتك أن تبقي عليها وتجمع بيننا، فلا ضير عندي أن أشارك مع هذي السيدة في الزواج منك.

الآن، يأتيني السؤال المشاغب لأول مرة: هل يجمع رجل متزوج امرأته في سرير واحد في لحظة الحب؟ ربما سيكون مشيراً أن تتمدد بيننا نحن الاثنين على فراش واحد. ما المانع، امرأتان تتشاركان في رجل؟

في ذلك اليوم، وأنا أراقبك تمشي بخطواتك الهادئة ممسكاً بكف زوجتك، نهشت أنياب الغيرة قلبي، وخمطت الحسرة هدأة روعي. وقلت لنفسني: لم نتزوج بعد وأكاد أحترق بنار غيرتي، فكيف سيكون حالي بعد الزواج؟ دار ببالي حال زوجتك، تصوّرت صدمتها لحظة تعرف بعلاقتك بي، وقلت: مؤكد أنها ستفقد عقلها حين تعلم بزواجنا. وستردّد بحرقه تشكو لأمها أو إحدى أخواتها بدموع وجعها: «الحقير خاني»، وسينعطف حسّها تكاد تبلع لسانها وهي تقول: «تزوّج عليّ». وأكاد أجزم أنها ستضيف بعد ثوانٍ وقد عرّبت الدهشة بوجهها وحسّها: «تزوّج شيعية»، ستقول كلمة «شيعية» وكأنها سبة.. ستترك صفة خيانتك لها وارتباطك بامرأة ثانية ليتحول ذهنها إلى زواجك من شيعية، وكأن زواجك من سنية أو مسيحية سيكون مقبولاً لديها!

في ذلك اليوم بقيت أسرق خطواتي على البعد. أمشي خلفكم مشتتة بصراح ضيقي وتلاطم أفكاري، لحين اخترت أنت أو ربما هي مطعم «لونوتر» الفرنسي، وما إن جلستم، حتى طلبت أنا من الشاب اللبناني المسؤول عن جلوس زبائن المطعم طاولة لشخصين، وأشرت إلى الركن الذي يمكنني من كشف طاولتكم، ويمنع عنك الالتفات لرؤيتي. لحظة جلستُ دار ببالي الانسحاب، شعرت أنني لا أحتمل البقاء في مكاني ومشاهدتك جالساً معها. وقلت: الأيام القادمة ستكشف لهذه المرأة كل شيء، وستجعلها تتعرف على حقيقتك.

رحت أنظر إليكم وحديثكم الهامس. هادئة ومسالمة بدت لي زوجتك. تأملتُها ولحظتها انغرس السؤال نصل سكين في خاصرتي، وأحدث نفسي قلت: ما ذنب هذه المرأة، وهذه الطفلة؟ تضايقت من نفسي، لكن نار قلبي المستعرة أنهضتني لأخطو باتجاه طاولتكم. وقفتُ أمامك، فخمشت دهشة المفاجأة ماء وجهك، مددت نحوك كفي

الراجعة بغضبها:

«مساء الخير أستاذ مشاري».

لا أدري كيف ولا من أين جاءت كلمة أستاذ التعيسة لتندس في جملتي. حاولت أنتَ تمالك نفسك، نهضت تصافحني، ومن بين أسنانك دفعت:

«أهلاً».

ابتسمتُ لزوجتك قائلة:

«أنا كوثر».

لم ألتقط ما تمت به، فخفق قلبي كان أعلى من نبرة صوتها، لكنني شعرت أن ضيقاً ما قد عصف بصفحة وجهك. ولكي لا أطيل أشرت إليك قائلة:

«تفضل».

وأنظر في عينيها قلت:

«فرصة سعيدة».

همست لنفسي: «طر فيكما أنتَ وزوجتك». لكنني بعد أن خطوت مُنسحبة، انتبهت أنني لم أحيّ ابنتك، ولكي أزيد من ارتباككما، عدت ثانية لأسلم على الصغيرة، ماسحة على رأسها:

«حبيبتي، أنتِ حلوة تشبهين بابا».

تركت المطعم وخرجت أداري انفعالي بعد أن تأكدت أنني لطّخت متعة خروجكم العائلي بطين المفاجأة. يومها، ولحظة ركبت سيارتي خرجت دمعتي، ومعها تفجّر ضيقي منك ومن نفسي!

اتصلت أنتَ بي أكثر من مرة، وتعمدتُ تجاهل الرد عليك، كنتُ متضايقه لا أكاد أطيق أنفاسي. تملأ العبرة صدري توشك أن تخنقني. وكأنني أكتشف للمرة الأولى أنك متزوج، ولك حياتك مع زوجتك وأطفالك. شيء واحد ظل يعزّيني وهو إحساسني أنني ضايقتك، وكنتُ أتلذذ بأن أتركك تغلي، يتصاعد بخار ضيقك ليملأ صدر روحك، دون أن تتمكن من

نفخه في وجهي. وكنتُ أشعر بشيء من الرضا أنني قدمت الجرعة الأولى من الصدمة لزوجتك.

منذ زرتك أول مرة في مكتبك، وأنت تلاحقني راجيًا:

«نلتقي».

لم يكن يمرّ يوم دون أن تلوّن رسائلك هاتفي النقال: «صباح ورد الحب» ، «صباح الشوق»، ترسل رسائلك بين ساعة وأخرى: «ليش أنا أشتاق وأنت؟؟؟»، «أنت بخيلة!» تبعث لي على بريدي الإلكتروني روابط أغاني الحب، في الصباح أغنية منعشة، وأخرى في المساء حالمية، وبعض قطع عزف الساكسفون بين وقت وآخر. لم أكن أعرف كيف أرد عليك، لكن جزءًا من روحي كان مستلذاً باهتمامك وملاحظاتك، وجزءًا آخر كان واقفًا عند تصرفاتك.

مساء كنا معًا في سيارتي نمرّ في شارع «جمال عبدالناصر» قرب مستشفى «الصباح»، دار ببالى أنك تخرج معي وأنت متزوج، فطفر مني سؤالي:

«أترضى لزوجتك الخروج مع رجل؟».

انتفضت كما لو أن عقربًا لدغك. اعتذلت ملتفتًا إليّ وقد أطلّ شيءٌ كرهه في نظرة عينيك. لطم كف الغضب جانب وجهك، اهتز الزجر بنبرة صوتك:

«الزمي حدودك!».

أغاطتني عبارتك بوقاحتك. تصحبني في موعد غرامي جالسًا في سيارتي وتهينني! تدفع عن زوجتك أن تكون مثلي! وأنا أغلي خفت من سرعة السيارة لحين توقفت على جانب الطريق، قرب مدخل المستشفى، وصرختُ بك:

«انزل».

رحت تنظر إليّ غير مصدق وقد هزّتك المفاجأة! فما كان مني إلا أن نزلت حافية؛ لأستدير إلى جهتك، أفتح الباب مكررة صرختي بك:

«انزل».

تركيتك واقفًا تلفك حيرة الدهشة، وتحركت بسيارتي شاعرة أنني
تخلصت منك، رميتك كأى ورقة «كلينكس» متسخة على رصيف
المستشفى.. تناولت علبة سجائري لأدخن سيجارة، علني ألوث
بدخانها الأسود صورتك في صدري.

الآن انتهى الأمر يا مشاري.

بالرغم من كل شيء، أنا من اتخذ قرار زواجنا! أنا متأكدة، لو رجع الأمر
لك، لسعدت بأن أبقى عشيقتك وكفى.. اليوم، ربما بعد ثلاث أو أربع
ساعات سن عقد قراننا. أمسك بيدي الورقة الشرعية التي لابد منها
كي أصبح زوجتك، وأحمل منك ويُنسب ابني لاسمك.

عجبة ورقة الزواج! بوابة في جدار عالٍ تتسع لمرور شخصين. ما قبلها
مرحلة ومشاعر وعالم، وما بعدها شيء آخر.. من كثرة ما سمعت عن
المشاكل التي تقع بعد الزواج، أتخيل وكأن هذه الورقة نحس على
العلاقة بين الرجل والمرأة. شيء شيطاني يختفي في حبر ورقة
الزواج قائلًا للرجل: هذه المرأة أصبحت جاريك وملكك الخاص، ولك أن
تفعل بها ما تشاء. ويشير للمرأة: هذا الرجل صار خاصتك وعليك
بملاحظته.

كيف ستكون معي يا مشاري بعد عقد قراننا؟ أسئلة الخوف التي
استيقظت معي منذ الفجر، لا زالت تحوم حولي!

الدين الإسلامي، يشترط شاهدين على الزواج؛ رجلين مسلمين
عاقلين، وأنا اخترت شاهدين، وكلاهما غير كويتي. أنت لا تريد لخبر
زواجنا أن ينتشر. قلت لي بنبرة فاترة:

«على الأقل ليس الآن».

بلغت إهانتك ورحت أنظر إليك مستغربة، لا أدري كيف فاتك وأنت
الرجل الفطن أن خبرين لا يمكن إخفاؤهما: الموت والزواج. ولأنني
شعبت نقاشًا عقيمًا معك، وكرهت بقائي وحيدة ومشتتة، وافقت
على أن يتم زواجنا سرًا. قبلتُ بإهانة الزواج السري؛ لأن قلبي تعلق
بك، ولأنك تطاردني بحبك وإصرارك على ارتباطنا؛ ولأنني ما عدت قادرة
على تجرع مرّ التصبر وسيط الانتظار ولقاءات الخلسة والخوف
وتهديدات عمي باقر.

اخترت هريدي حارس البناية المصري، وعلي سائق التاكسي

اللبناني الذي يأخذ خادمتي إلى الكنيسة مساء الأحد. سيصحب هريدي بسيارته، وسيأتيان معاً إلى «قصر العدل» للشهادة على عقد قراننا. أعطيت كلا منهما خمسين ديناراً كي أضمن التزامهما بالموعد.

البارحة اتفقت معي:

«سأمرّ عليكِ في التاسعة».

هاجس مخاتل يلوح لي فيُخيفني: ماذا لو لم تأتِ؟ هل يمكن أن تخلف وعدك؟

ورقة زواجنا قبل أن تُكتب دفعت أسرتي للتبرؤ مني؛ أمي وأخواتي وعمي وباقي العائلة. ومؤكّد أنها ستزعج أهلك وتلاحقهم ليرددوا في مجالسهم: «ترك زوجته وأطفاله، وركض وراء عشيقته الشيعة!».

عائلتي وعائلتك سينبذوننا.. أخيراً سننام بالحلال والنبد، ولننبد في المجتمعات المتزمّة متعة تفوق متعة الحلال!

أتحرق لرؤية نظرة عينيك لحظة أمسك بورقة زواجنا بيدي. مئات المرات تخيلت هذه اللحظة.. نظرة عينيك هي ما علقت قلبي بك، وفضحت رغبتك الذكورية بي.. أذكر لقاءنا الأول قبل أربع سنوات في مكتبك في الوزارة. فبعد أكثر من سنة لإنجازي معاملاتك في سوق الأوراق المالية، عبر التلفون والفاكس والإيميل، بصفتك شخصاً مهماً جداً (VIP)، وبصفتي مديرة الحسابات الشخصية في البنك، أثرت فضولي فقررت رؤيتك. كنتُ معجبة بأدبك واقتصادك في الكلام، ومتضايقة من لعبك لدور الرجل الكريم الذي يرسل لي هدية ثمينة مع كل صفقة رابحة أنجزها له. كنتُ أتخوف من أن ألاقيك وتكون صورتك في الواقع بعيدة عن صورتك في الجرائد والمجلات، وبعيدة عن الطول الفارع الذي أعشق. فأنا لا أتصور زواجي برجل أقصر مني، ولا أحب رجلاً ناعماً في صوته وحركاته، ولا الرجل الذي يجعل من عضلاته المفتولة دليلاً على رجولته، ولا أطيع رجلاً بكعب قدمٍ أكثر خشونة من مبرد الخشب، أو برائحة نتنة.

اختلقت ضرورة كاذبة لتوقيعك على استثمارة جديدة لحسابك البنكي، وحين طلبت مني إرسالها إليك مع المندوب، أحببتك بأنها استثمارة خاصة، ويجب أن تأتي شخصياً إلى البنك للتوقيع عليها، وأدسّ جملتي اقترحت عليك:

«أو أزورك أنا في مكتبك؟».

«أهلاً وسهلاً».

أسرعت ترحب بي وكأنك تنتظر الزيارة. انخطفت وزاغت نظرة عينيك وأنت تراني أدخل مكتبك.. مؤكداً أنك لم تكن تتوقعني كما أنا عليه. لكنني لحظة أمسكت بكفك للسلام شعرت وكأن روعي أصبحت في راحة يدك! أحببت نظرة عينيك التي ترسل ودًا إنسانيًا أسراً، وأحببت كفك بخشونة الرجولة فيها ونعومتها، وأصابعك الطويلة وأظافرك المقلمة.

في ذلك اللقاء وبعد أن أنهيت حديثي حول وضعك المالي، نهضت لأقدم لك كيساً وضعته على مكتبك:

«ما هذا؟».

سألت وقد علت الدهشة وجهك، وبجملته رددتها مع نفسي، قلت لك:

«هداياك».

وأزید من مفاجاتك:

«أنا أغني منك».

خلا وجهك من أي تعبير، وأباغتني نهضت أشير إليك:

«مع السلامة».

«لحظة، لحظة».

هرعت تخرج من خلف مكتبك مسرعاً، وقد تخلص الهدوء عنك:

«إلى أين؟».

سألت وكنت تهمّ بمدّ يدك لتمسك بذراعي، لكنك استدركت فقلت فيما يشبه توسلاً:

«اجلسي قليلاً».

«عَدَّ أَنْتَ فَاجِلِسْ مَكَانِكَ».

خَاطَبْتِكَ بِلَهْجَةِ أَمْرَةٍ، نَاطِرَةً فِي عَيْنَيْكَ، وَأَضَفْتَ:

«كَذَبْتُ عَلَيْكَ، لَيْسَ هُنَاكَ أَيُّ مَعَامَلَةٍ بِنَكِيَّةٍ أَوْ تَوْقِيعٍ».

وَأَزِيدُ مِنْ حَيْرَتِكَ تَرْكُوكَ تَائِهًا فِي دَائِرَةِ الْمَفَاجَأَةِ، وَخَرَجْتَ مُنْتَشِيَةً مِنْ مَكْتَبِكَ، تَكَادُ خَطَوَاتِي أَنْ تَطِيرَ بِي. مُرَدِّدَةً أَحَدَثَ قَلْبِي مَعْجَبَةً بِكَ: «وَسِيم!».

مِنْ أَيْنَ جَاءَتْ أَسْئَلَةُ الْخَوْفِ فِي هَذَا الصَّبَاحِ لِتَتَكُومَ هُنَا بِقُرْبِي؟ وَيَصْعَدُ بِي السُّؤَالُ: هَلْ نَحْنُ الَّذِينَ نَمْشِي تَجَاهَ أَقْدَارِنَا، أَمْ إِنِّهَا تَنَادِي عَلَيْنَا، فَتُلَبِّي دُونَ أَنْ نَعْلَمَ مَاذَا تَخْبِي لَنَا؟

مِثْلَمَا يَحِقُّ لِأَيِّ رَجُلٍ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِامْرَأَةِ أَحِبَّهَا وَوَاظَفَتْ هِيَ عَلَى الْإِرْتِبَاطِ بِهِ، سَأَتَزَوَّجُكَ لِأَنِّي أَعْجَبْتُ بِكَ وَأَحْبَبْتُكَ.. فِي الْفَتْرَةِ الْآخِيرَةِ صُرْتُ أَعِيشُ وَهَاجِسُ الْحَمْلِ يَظَلُّ لِحِطَّتِي. صَارَ يَتَضَخَّمُ مَعِ كُلِّ يَوْمٍ، وَكَأَنِّي فَجَاءَةً تَنَبَّهْتُ إِلَى أَنَّي تَجَاوَزْتُ الثَّلَاثِينَ، وَأَنَّ أَخَوَاتِي وَصَدِيقَاتِي أَصْبَحَ لَهُنَّ أَبْنَاءٌ بِطُولِهِنَّ. تَشَوَّقْتُ لِأَنْ يَتَحَرَّكَ جَنِينٌ فِي رَحْمِي، وَأَنْ تَتَفَخَّخَ بَطْنِي كَأَيِّ امْرَأَةٍ حَامِلٍ، تَظْهَرُ عَلَامَاتُ التَّشَقُّقِ عَلَى جِلْدِهَا. أَمْشِي بِنَعَالٍ دُونَ كَعَبٍ، وَقَدْ تَقَوَّسَ عَمُودِي الْفَقْرِي دَافِعَةً تَكْوَرُ بَطْنِي أَمَامِي، وَتَلُوحُ عَلَى وَجْهِهِ تِلْكَ التَّكَشِيرَةُ الَّتِي تَطْبَعُ وَجْهَهُ النِّسَاءَ الْحَمْلُ.. لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي حَيَاتِي، صَارَتْ خَطَوَاتِي تَأْخِذُنِي لِزِيَارَةِ مَحَلَّاتِ مَلَابِسِ الْأَطْفَالِ. أَقِفْ عِنْدَ مَلَابِسِ الْحَوَامِلِ، وَأَتَصَوَّرُ نَفْسِي أَدْفَعُ عَرَبَةَ طِفْلِي.. حِينَهَا تَفْهَمْتُ شَكْوَى مَنِي، صَدِيقَتِي الْأَحَبُّ فِي الْبَنكِ، الَّتِي مَضَى عَلَى زَوَاجِهَا أَكْثَرَ مِنْ خَمْسِ سِنَوَاتٍ وَلَمْ تَسْتَطِعْ الْحَمْلَ. كَانَتْ عَقِبَ فِشَلِ كُلِّ عَمَلِيَّةٍ طِفْلٍ أَنَابِيبَ تَجْرِيفِهَا، تَبْقَى بِعِزْلَتِهَا مَكْتَنَّبَةً لِأَيَّامٍ، تَبْلُلُ جَمْلَهَا بِدَمْعِهَا:

«حِينَ تُحْرَمُ الْمَرْأَةُ مِنَ الْحَمْلِ، تُصَابُ فِي أَثْمَنِ وَأَجْمَلِ مَا فِي حَيَاتِهَا!».

كُنْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهَا بِحَيْرَتِهَا وَحَرِّ أَلْمَهَا، تَبْشِّي:

«الْمَرْأَةُ وَمَعَ كُلِّ دَوْرَةٍ شَهْرِيَّةٍ، وَلِحِظَةٍ يَلْطَخُهَا الدَّمُ، يَلْطَخُ مَزَاجِهَا شَيْءٌ مِنَ الضِّيقِ، لَيْسَ بِسَبَبِ الْأَلَامِ الْمَزْعُوجَةِ الْمَصَاحِبَةِ لِلدَّوْرَةِ، وَلَكِنْ بِسَبَبِ كَدِّ الرُّوحِ؛ رُوحِهَا كَأَنَّهَا وَهِيَ تَكْوَرُ الْفَوْطَةُ الصَّحِيَّةُ، وَتَرْمِيهَا خَلْسَةً فِي سِلَّةِ الْقِمَامَةِ».

وتنعطف نبرة صوتها قائلة:

«الرجال لا يرون من النساء إلا أجسادهن، ولو أنهم عرفوا ما خلف كل عضو من أعضاء المرأة لتغيرت نظرتهم إليها، وربما نفروا منها!».

في كل مرة كانت تجلس معي في نهاية الدوام، وبعد أن تتخفف من ثقل همِّها، تختم حديثها معي:

«أنا آسفة».

تقول جملتها وكأنها تنتبه إلى أنني غير متزوجة. يعلو خجل مفاجئ وجهها، تنهض وصوتها يردد:

«آسفة، حبيبي كوثر أزعجتك بشكواي».

بعد لقائي الأول بك، وما إن خرجت من مكتبك في الوزارة حتى تعمدت إغلاق تلفوني النقال. كنتُ متأكدة أنك ستتصل، ورحت أتحدى نفسي: كم مرة سيفعل؟ ثلاثًا، خمسًا.. يومها ولأن تلفوني النقال في حقيبة يدي، ولأنني لحظة عدت إلى مكثبي في البنك انشغلت بأعمال كثيرة، لم أنتبه إلا حين طلبتني أختي جميلة من تلفون مكثبي متسائلة:

«تلفونك النقال مغلق!».

لحظتها تذكرت التلفون وتذكرتك. وحين فتحته فوجئت بسبعة اتصالات منك! ابتسمت، ولم أكد أنتهي من قراءة الرقم حتى عاودت أنت الاتصال:

«ألو».

وكما لو أنك لم تكن تريد من الحياة إلا سماع صوتي ليردَّ إليك جزءا من روحك الغائبة. بقيت ساكتًا وخنستُ أنا أنتظرك تقول أي كلمة، ولأنك لم تنطق بأدركُك:

«تفضل أستاذ مشاري».

«لا تقولي أستاذًا».

ربما تلك كانت العبارة الأولى في قصة حينا، ففي جرس نبرتها ما كشف لي عن ضعفك، وأشعرني أنك طفل صغير، وأوحى لي بأن

أشياء كثيرة يمكن أن تحصل بينها. ولا أدري كيف أسرعُ أسألك:
«تتغدى معي؟».

أربكك طلبي المفاجئ، وتلكأت في الإجابة لثوانٍ قليلة كانت كافية
كي أسحب دعوتي:
«آسفة أمي تنتظرني».

قلت منهية المكالمة دونما الرجوع إليك. فلقد تضايقت من نفسي
لأنني تسرّعت بدعوتك، وتضايقت منك لأنك رفضت اقتناص دعوتي،
وضيقان كانا كفيلين بأن أغلق تلفوني وأخرج من مكثبي قبل انتهاء
الدوام.

أنت من أصرّ على ملاحقتي. أذكر رسالة التلفون الصغيرة تلك:
«أحلى صباح للبنّت العصبية!».

وجدتها على تلفوني لحظة فتحته في صباح اليوم التالي. استغربت
الخفة التي جعلتك تكتب مثل تلك الرسالة! لكن حلاوة مخاطلة دارت
في روحي. ووجدتني منتعشة وأنا أستحم وأنتقي ثيابي وأتبخر قبل
خروحي إلى عملي. وما إن ركبت سيارتي، وكما لو أنك كنت تراقبني،
جاءني حسك بنبرة لم أعتدّها طوال تعامللي البنكي معك:

«صباح الورد».

بقيت صامتة، فأضفت تسألني:

«ضايقتك؟».

فاجأني اتصالك وفاجأتني كلمتك. تحيرت لا أعرف بما أرد، فعُدت
تسألني:

«كيف أراضيك؟».

«لست متضايقة».

أخبرتكَ أنني مخطئة، فدعوتي للغداء لم تكن في محلها، وأنت محق
بترددك، وأني أقدر موقفك:

«أنا أنتظر دعوة جديدة».

لم تعجبني حملتك، شعرت أنني أمام رجل مختلف عن ذاك الذي ظل يردّ بتحفّظ طوال سنة على اتصالاتي. فأسرعت أقترح:

«أفضل أن نبقي في علاقة العمل».

خنست أنتَ خلف التلفون، وأنتهز الفرصة قلت لك:

«عفوًا، لديّ مكالمة ثانية».

أنهيت اتصالك؛ كي أهرب من ارتباكي. انتبهت إلى أنني ارتكبتُ خطأً كبيراً بزيارتك. ولمت نفسي على دعوتي السخيفة لك لتناول الغداء، وقلت بصوت عالٍ: الرجل متزوج وعنده أطفال! لكن باقة ورد «الكارابلانكا» الوردية التي بعثت بها، مصحوبة ببطاقة بيضاء مكتوب عليها «إلى الغالية»، احتلت مكثي برائحتها القوية، مسّت روحي، تركتني مبعثرة طوال يومي.

مشاري، لا أعرف سبباً محدداً جعلني أنجذبُ إليك، وكأنه لا سبيل للتأمل في الحب والمحبوب معاً. فحين يهيم أحداً بالبحث عن الحب فهو يعمى عن حال المحبوب. ولحظة تُتيم بالمحبوب، فأنت دون أن تدري تنساق إلى شواطئ وغابات من الجنون والألم!

أنتَ من ركض خلفي. صحيح أنني زرتك في مكتبك بداعي الفضول، لكنك رحّلت تلاحقني:

«بودي نكون أقرب».

قلت لي بنبرة ناعمة حين اتصلت لأشكرك على باقة الورد.. استغربت كثيراً حملتك. بقيت ساكته، فعدت لمغازلتي بنعومة صوتك:

«آسف إذا ضايقتك».

بين يوم وليلة انقلب الرجل! حدّثت نفسي وكأنني لا أصدق ما يحدث، ويفلت مني السؤال:

«ماذا حصل؟».

وبالنبرة الناعمة ذاتها قلت لي:

«أنا مسحور!».

انفجرت أنا بضحكتي دون قصد، فزدت أنتَ تعبر عن إعجابك:

«أحلى ضحكة».

مع مرور الأيام وإصرارك على ملاحقتي؛ ارتخي حبل تماسكي. ملأت صورتك رأسي.. أذكر يوم خرجت من البنك، فوجدتك تنتظرني في الموقف. اصطنعت مشيك تجاه ماكينة سحب النقود لتقف معي:

«جئت لأراك».

قلت لي غارسًا نظرة عينيك في قلبي.. فاجأني ظهورك غير المتوقع:

«لماذا أنتِ قاسية».

كنت تكلمني وكأن شيئًا يجمع بيننا، وكان أسلوبك يبعثر الكلام عن لساني، ويجعلني إنسانة أخرى.

يومها طلبت مني أن نلتقي؛ ولكي لا أطيل من وقوفي معك، وعدت قائلة:

«سأرى».

بسببك التف حبل العلاقة الماكر حول رقبتك ورقبتك. أربع سنوات عمر علاقتنا. لكنني وخلال الأشهر الماضية، حين اتخذنا قرار زواجنا، بدأت ألاحظ انطفاء شيء من تلك النظرة النزقة في عينيك! وتبخر شيء من الابتسام الذي كان يجمّل وجهك.. في إحدى المرات بُحت لي بآلم:

«أشعر أن حياتي تهتز وتتدهور!».

وتلوّث الشكوى في حسّك:

«ما عدتُ قادرًا على التركيز في عملي!».

جننتُ أنا بك شريك حياة، وتعلّقت أنتَ بي أنثى مغربة.. في الفترة الأخيرة، صرتُ أتعذب وأنا أراك تتمزق بعجزك عن ترك زوجتك وعيالك، وبين حرّ رغبتك في البقاء معي.. قررت عدم استقبالك في شقتي؛ علّ ذلك يبعدك عني ويُنهي علاقتنا، طلبت منك:

«أرجوك لا تأتِ لزيارتي».

وحذرتك:

«لن أسمح لك بالدخول».

لكنك جئت.. في المرة الأولى بقيت واقفًا بالباب لأكثر من ربع الساعة. لتصرف بعد أن دسست ورقة صغيرة تحت ضلعة الباب كتبت عليها: «كوثر حبيبة مشاري». وجئت في المرة الثانية ولم تترك ورقة، وفي المرة الثالثة حضرت بعد الثانية صباحًا، ولأنني كنتُ نائمة تفاجأت برنة جرس الباب، فأسرعتُ أدخلك. وقفت منكسرًا تنظر إليّ وأنا أقف بقميص النوم وكأنك تراني للمرة الأولى:

«أنا أحبك».

أرسلت جملتك الموجهة، ورميت بجسدك على «الصوفا» وبقيت سارحًا لم تنطق بحرف واحد. ولا أدري كيف غفوت أنا ممددة على الصوفا المقابلة، وحين أيقظتني الخادمة في السابعة صباحًا كنتُ وحدي، فتصورت أنني كنت أحلم وأنت لم تحضر. لكنك اتصلت تعاتبني:

«أنتِ قاسية».

قلت لي:

«حضرت البارحة لأراك.. لا أتصور حياتي بدونك».

«وزوجتك؟».

أربكك السؤال وأخرسك، وأبكي قلبي.

كلانا في ورطة! أنت في ورطة رجل ركض وراء رغبته بامرأة فغافله قلبه وتعلق بها، وتنتظره ضريبة وضربة قاسيتان في حال طلاقه من زوجته وتشتت أطفاله. وأنا في ورطة حبك وخلافي مع أهلي ووحدتي، وتهديدات عمي باقر، وإحساسي أنني أسطو عليك لأنتزعك من حضن زوجتك وعيالك.. أريد الارتباط بك لأنني غير مستعدة لأن أكون امرأة متعة رخيصة، تأتي إليها لتفرغ فورة رجولتك، وتغادرها مرمية في قاع حفرة مظلمة.

لا أدري لماذا استيقظت المخاوف في قلبي صباح يوم زواجي!

تعبت كثيراً وما عدت أحتمل المزيد!

في السعودية اخترعوا زواج «المسيار»، وأنا لا أقبل على نفسي أن أكون امرأة مستكينة ألود في غرفة في بيت أهلي أنتظر أن يتكرم رجل عليّ، يأتي مُسيِّراً لزيارتي مستقوياً بفحولته ونافشاً ريشه كالديك. يسعد قلبي بحضوره الذكوري، يختلي بي ليفرغ شهوته البائسة، ويتركني بعدها على أمل زيارة قادمة يتفضل بها عليّ متى ما فارت شهوته.. البعض من الشيعة لديهم ما يُسمى بزواج «المتعة»، وأنا لا أرضى أن أكون متعةً مبدولة لرجل تافه، راق له شكلي فوافق أن يعقد عليّ قراناً بائساً صورياً لمدة شهر أو شهرين كي أرفه عنه وأسعد نزوته.. لا أرضى إلا بعلاقة كاملة مع رجل إنسان قبل أن يكون ذكراً. تعلمتُ من أبي أن العلاقة بين الرجل والمرأة تعني مشاركة الحياة بحلوها ومرّها، وليس نومة الفراش التعسة.

يا مشاري، أنا حلمت بك فترة، واقتريت منك فترة، وفكرت طويلاً، وأخيراً قررت.. ولأن قرار الزواج لا يصح بفرد واحد، هو في كل بلاد الدنيا، وحسب جميع الأديان السماوية والملل البشرية اتفاق بين طرفين، يُعَمِّد في كنيسة أو يُوثق في محكمة أو أمام قاض شرعيّ، المهم شخصان يريدان الارتباط ورجل دين وشهود، ولأنك أعجز وأحبين من أن تتفق معي على الزواج، انتزعت أنا موافقتك.

ربما لهذا أنا خائفة!

الكويت واحدة من أصغر دول الدنيا، أنا وأنت كويتيان مسلمان، إلا أن الحواجز وقفت في وجه حبنا وزواجنا، أول هذه الحواجز، إصرارك على علاقتك ووصلك بي، مع احتفاظك بزوجتك وأطفالك ووضعك الاجتماعي. أنت لا تريد أن تخرب هدوء عائلتك وتخدش صورتك أمام المجتمع باستقرارك الأسري، وتريدني أن أكون العشيقّة، المرأة الاحتياط، وأنا أرفض هذا. أرفض أن أكون أقل من امرأة كاملة لرجل كامل، أعيش لحظتي معك وأنا أشعر أنك رجلي وحدي، وأني حبيبة قلبك ومعيشووقتك. وإذا كان لديك أنت استعداد، كأني رجل، بأن تكون معي نصف رجل، نصف منتّم، نصف محبّ، نصف زوج، فأنا أرفض النصف، ولا أرضى إلا بالواحد. ثم تحسسك من أني شيعية وأنت سني، ولو أنك لا تمتلك جرأة التصريح به، إلا أنني مراراً شعرت بأن الكلمات تلتصق بسقف فمك، تخشى منها فضح تخوفك وحررك المكشوف. وأخيراً خوفك من المجهول الذي ينتظرك حين يُقال:

«تزوج عشيقته بالسر».

بعد موت والدي أشعر أنه ما عاد لي من أحد في الكويت.. في الآونة الأخيرة، وبعد أن همتُ بعنائي وتعبني ويأسي منك، فكرت بالهجرة إلى أي بلد. قررت الابتعاد عنك كي أريح قلبي. لكنك تمسكت بي:

«أموت لو سافرت».

في كل مرة أردّ عليك:

«كذاب».

تبتسم أنت متصورًا أنني أمزح معك، وأؤكد لك:

«أنا جادة».

ما صادفت في حياتي رجلًا مات بعد أن هجرته حبيبته. هذا كلام لا مكان له علي أرض الواقع، وليس له وجود إلا على صفحات الروايات الرومانسية أو أفلام هوليوود.

آه لو تعلم يا مشاري: لحظات المتعة التي ذقتها بصحبتك، لا تكاد تُذكر أمام جبل المواجه والحزن والألم الذي عشته معك! ليتني استمعت لعقلي، فأنا بعد لقائنا الأول في مكتبك، وبعد رفضك لدعوة الغداء الأولى التي قدمتها لك، قلت هامسة لنفسي: هذا ليس رجلك يا كوثر. هذا رجل جبان خطواته أقصر بكثير من أن تجاري خطواتك، ووضعت ألف عذر وعذر. قلت: رجل متزوج وله ثلاثة أطفال، وقلت: لن أسمح لنفسني بتخريب شمل أسرة. وقلت: لست أنا من تسرق رجلًا من امرأة أو تشاركها زوجها. وزجرت نفسي: كيف تبين سعادتك على حطام امرأة وأطفالها؟ وقلت، وقلت، وقلت.. لكننا، في الحب نقول كل شيء لأنفسنا، وتستمع وتقتنع وتالياً تفعل ما يشير به القلب!

ربما بعد ساعات سأستلم بيدي ورقة عقد قراننا.. ربّنا معًا رحلة لمدة أسبوع كشهر غسل.

فجأة، أشعر أن كل شيء اختلط في فكري! نمتُ البارحة وشيء من لهفة وفرح في قلبي، واستيقظت وأسئلة كثيرة متكومةً بقربي.. لا أدري لماذا أنا مشتتة.

ما زلت ممددة على فراشي في غرفتي.. احتجت لفترة، بعد انتقالني إليها؛ كي أعتاد نومي على فرشاة سريري الجديد. جئت بمخدتي التي

أحب معي من بيت أبي .. فجر اليوم انصبّ صوت مؤذن المسجد
القريب في أذني، وهو يرفع أذان الفجر، وكأنه يتعمد إيقاظي. نظرتُ
إلى الساعة التي تراقبني فكانت تشير إلى الخامسة؛ لذا فضّلت
البقاء في فراشي. حين يكون لدينا موعد مهم، نتغاضى عن خسارة
ساعات عمرنا، نتمنى لو يأتي الموعد في التو واللحظة.

عمري وحياتي منذ صغري كانا مختلفين عن حياة أخواتي وبنات عمي
وصديقاتي.

نحن خمس بنات؛ جميلة الكبرى، سمّاها والدي تيمناً باسم المناضلة
الجزائرية «جميلة بوحيرد»، وبعدها فاطمة وزينب التوأم، ثم ثريا،
وأخيراً جئت أنا. يوم ولدتني أمي التي كانت منذ حملها الأول تحلم
وتتوق لمولود ذكر، خاطبها أبي بقوله:

«لا أريد ولداً».

نظر إليها، وقال بنبرة مزاج مرّ:

«إذا كنتِ مصرة على ولد، فابحثي عن رجل آخر».

يلبس الجدُّ وجه أمي وهي تقصّ عليّ حكاية ولادتي، تقول إن أبي
اتخذ قراره:

«كوثر ستكون بنتنا وولدنا».

تغيب لبرهة تستذكر حوادث حياتي، فتبعث وكأنها تكلم نفسها بشيء
من أسى:

«صدق أبوك».

الساعة تشير إلى الخامسة والنصف. سأزيح ستارة النافذة حال
أنهض من السرير، وأحيي البحر كعادتي كل يوم، فأنا يحلو الشعور لي
بأنه يسكن معي شقتي، أردد عليه بصوت مسموع:

«صباح الخير».

شقتي هادئة، ما زالت خادمتي نائمة، وأنا لم أزل ممددة هُنا فوق
فراشي أنظر إلى السقف الأبيض وكأنني أقرأ حوادث عمري.. أمي
كانت تقول لي:

«مسكين الرجل الذي سيتزوجك».

أنظر إليها أسألها:

«لماذا؟».

تسكت لبرهة قبل أن تردّ بنبرة لائمة:

«دلّوعة وصعبة».

لكن أبي لا يلبث أن يطلق جملته في الهواء:

«مسكين الذي سيحبّها».

مرارًا تساءلت: ما الذي يدفع أبي لتكرار جملته؟ ربما لأنني تعلقت به وعشقت عالمه؛ لذا فهو يدرك كيف سأتعلق بأبي رجل حين أعشق.. أبي كان صديقي وحبيبي، وكان يدلّني عن كل بناته، وكم أثار ذلك غيرة أخواتي.

عام ١٩٨٧، كنتُ في العاشرة من عمري يوم دفعتني ثريا أختي التي تكبرني بسنتين، في البحر دون سبب. كنا نقف على اللسان الخرساني الممتد داخل البحر أمام شاليه بابا. وكان الهواء عاصفًا والموج عاليًا، وكنت أقف لاهية أنظر إليّ هيجان البحر وتدافع الأمواج، وحتى اللحظة أشعر بخفق قلبي حين أسترجع لحظة ارتطام جسدي بالماء، لا أدري كيف انطلقت صرختي على وجه الماء، لكن شيئًا ما سحبني إلى الأعماق، ولم أستعد وعيي إلا وأبي يضغط صدري ليطفح الماء المالح خارجًا من فمي وأنفي. في تلك اللحظة شعرتُ بالفزع من الموت، وربما دون أن أعي أدركت كم هي قصيرة الحياة، ولا تحتاج لأكثر من دفعة صغيرة كي تنتهي. وربما دون وعي أيضًا قررت أن أعيش الحياة وكأنني سأموت في اللحظة القادمة.

في عصر ذلك اليوم، ونحن في السيارة عائدان إلى البيت، طلبت من أبي أن يعلمني السباحة، وطلبت من أمي ألا أنام مع أختي ثريا في غرفة واحدة، ولأنها لم تأخذ طلبي على محمل الجد، وردت عليّ مُهَوِّنة حين جاء موعد النوم:

«أبوك عاقبها ولن تعيدها».

بقيت جالسة في الصالة، أعدتُ عليها وأنا أضغط مخارج الحروف في

كل كلمة:

«لن أنام معها».

ولأن صوتي ونظرة عينيّ نطقاً بصدق نيتي، ظهر شيء من الضيق والحزن علي وجه أمي، وانكمشت ثريا في جلستها. صرخت أمي تنادي على أبي الذي أخذني إلى فراشه، قائلاً لأمي:

«غداً تنام كل بنت في غرفة».

حين ارتفع جدار الطابوق ليفصل بين غرفتي وغرفة أختي، كان قد سبقه جدار الخوف منها في قلبي، وجدار الحقد عليّ في قلبها.

تلك الحادثة كانت أول دليل على صلابة شخصيتي.

تدليل أبي وتفضيله لي على بقية أخواتي، ضعفا علاقتي بأمي، وجر عليّ غيرة أخواتي وكره ثريا وحقدّها، ليس في طفولتي وباقي مراحل حياتي، بل وجعل أمي تلتصق بثريا وتفضّلها علينا أجمع. بينما راحت أخواتي ترددن عليّ بسبب ومن دونه:

«دلوعة بابا!».

تعوّد أبي صباح اليوم الأول من عيد الفطر والعيد الأضحى، وبعد أن يرجع من مجلس «ديوانية» الرجال في بيت جدي، تكون أمي قد حممتنا أنا وأخواتي، وألبستنا ثياب العيد الجديدة، ورتبت شعورنا وبخرتنا، وما إن يدخل أبي حتى ينثر حملته الحبيبة:

«عيدكم مبارك!».

وبالرغم من تنبيهات أمي بأن ألازم مكاني، انفلت راكضة نحوه أرمي بنفسي عليه، وأقبله قائلة:

«عيدك مبارك».

يحملني هو ضاحكاً، يقبلني ويقول بصوت عالٍ وكأنه يريد للجميع أن يسمعه:

«وعيدك يا حبيبة بابا».

يجلس على كرسية المعهود، ويضرب على جيب دشدشته الجانبي
الأيمن مردداً بنبرة أحبها:

«عيادي، عيادي».

يبدأ بإعطاء أمي عيديتها، ثم أخواتي يعطين مبالغ العيدية نفسه:
جميلة وفاطمة وزينب وثرثيا، وحين يصل دوري، يفرد أمامي أوراق
النقود الجديدة قائلاً:

«عيدية حبيبتى على كيفها».

تعاتبه أمي:

«كلهن بناتك، لا يصح أن تفرق بينهن».

ودون تورية يجيبها:

«أحب كوثر».

تصرخ أمي عليّ بضيق واضح:

«خُذي ما أخذته أخواتك».

حب أبي وتدليله أبعدانى عن أخواتي، وجرّاني وراءه أول ما جرّاني
إلى المكتبة والكتب، فعادة أبي في كل يوم، بعد أن يستيقظ من
فيلولته أن يحمل كأس الشاي، ويقصد مكتبته. وما كاد عمري يبلغ
السادسة، يوم صرت أشاركه وحدي جلساته اليومية. تلك الجلسات
كانت تمسّ قلبي بسحر عالمها. يقصّ هو عليّ أخبار يومه ولقاءاته
وصداقاته، ويطلب مني أن أخبره عن يومي في المدرسة. في تلك
الغرفة الحبيبة في بيتنا في منطقة «الدّسمة»، راح أبي يحلّ معي
واجباتي المدرسية ويقرأ عليّ الروايات والكتب، حتى دون أن أفهم
الكثير مما كان يقرأ لي. وفي التاسعة بدأت أقرأ وحدي، وصرت أنافسه
في عدد الصفحات التي تنتهي منها في جلستنا كل يوم.

كنتُ أقصد مكتبة أبي لأؤكد لنفسى مكانتي الخاصة لديه؛ ولأظهر
لأمي وأخواتي التصاقى به وقربه منى؛ وكى أستمتع بسماع أخباره،
وأخبره بحوادث يومى. وكنت أقرأ وأقرأ بداعى التقرب منه وإسعاده،
وأن أثبت تميّزى عن أخواتى، فهناك كنتُ ألتقى بأصدقاء أبى من
الكتاب والمثقفين والفنانين وأستمع لنقاشاتهم وأحاديثهم. وأبداً لم يدر

بخلدي أن تلك الجلسات والقراءات والأحاديث ستلعب بحياتي
وتغيّرّها، وتسم شخصيتي بطابع مختلف جعلني أشعر بالغربة والألم
أيّما ذهبت!

-٤-

هنا في غرفة مكتبي، يلكرني ألم «الديسك» في ظهري، ينبّه خدر ساقي اليسرى، يزجرني إذا أطلت الجلوس أمام الكمبيوتر، فأتوقف لبرهة عن الكتابة، أنهض بالمي كي أخطو بضع خطوات. أتفقد الهدوء والوحدة، فيسرع يعودني اللحن الشجي، ويمرّحني صوت محمود الكويتي بكلمات الشمري:

شفت الجدائل واحسبك رومية ثاري الزلوف مقرّضة يا أخواني

أغيب بخيالاتي مع امرأة جريئة، «بزلوف» شعرها القصيرة، حتى إن الشمري ظن لوهلة أنها أجنبية.. تأتي إليّ أيام صغري وشبابي، ويحضر بي لحن الدفوف والتصفيق في حفلات النساء برقصهن لفن السامري. لابسات أثواب الرقص الشفيفة، الموشاة بالزّ الذهبي اللامع. يتهادين بخفر حركة أجسادهن، يتمايلن وقد توحدن بإيقاع اللحن، وترنم اللحن لخطوهن.

يرقصن بتوءدة .. تشدّني تلك اللحظة، حين تزيح المرأة الثوب عن رأسها، كاشفة وجهها، وتنحني قليلاً برقبته ل «تلفح» بشعرها يمنة ويسرة، وكأنها تتخلص رامية ما يثقل رأسها من هموم، تنثر شيئاً من بخور شعرها المعطر بدهن العود، على من حولها، قبل أن تعاود تغطية رأسها وحجب سرّ وجهها؛ لتترك لخطوها المتهادي هزّ غصن جذعها على وقع الدفوف وشيء من التصفيق المتناغم.

كيف يمكن لحركة الجسد أن تكون بوابة العبور لارتواء الروح؟

وحدي أمضي ساعات يومي، هنا ..

انبعثت الجملة في قلبي، فشعرتُ وكأن جيشاً من نمل الضيق بدأ يدبّ على روحي، زحف ليكدر مزاجي. انتبهت إلى أن الوحدة تبخلق بي، وأن الجدران تشتكي ملل صمتها.

اقتربت أقف خلف نافذة مكتبي المطلّة على منطقة «المباركية».. حركة السيارات في شارع «علي السالم» منسابة، وعلى البعد لاحت

لي قبة «مسجد الدولة» وإلى جانبها مبنى «البنك المركزي» الجديد الشاهق في مراحل بنائه الأخيرة.

غرفة مكثبي صغيرة بطعم «صوفا» بني داكن، وحوائط بيضاء مسالمة، ومكتب بني اللون وكمبيوتر، ومجموعة كتب ومجلات، وصراخ أفكار وضجيجها.. أنا سجين هنا. يبقى باب غرفتي مغلقاً طوال اليوم، فلا علاقة لي بما يجري من أعمال واجتماعات ولقاءات في إدارة الهندسة، وبالكاد ألتقي أحياناً زملائي في الإدارة بينما أعبر الممر المؤدي إلى غرفتي، أتبادل معهم التحية.

منذ بداية عام ٢٠٠٩ وأنا مزروع بصمت في هنا. البعض يردد في غرف المجلس الوطني الغارقة في سؤالها:

«طالب الرفاعي محمد!».

ويعلل بعض آخر غيابي عن فعاليات المجلس وأنشطته. هامساً بنبرة حذرة:

«أبعده عن أي منصب أو مهمة».

وهناك من يتهمني بالتعالي والتكبر وأنني اخترت عزلتي بنفسي. لكن، أصدقائي الكتاب والصحافيين والإعلاميين من داخل الكويت وخارجها يحسدوني، حين يأتون لزيارتي فيكتشفون أنني أحيا هنا هادئاً، متفرغاً للقراءة والكتابة، وأنني أستلم راتبي مكملًا في نهاية كل شهر.

يوم بدأت السير على درب الكتابة المغربي، في مجلات وصحف جامعة الكويت في منتصف السبعينيات، كنت طالباً في كلية الهندسة والبتروك، وقتها منيت نفسي بأحلام كثيرة، أومأت تشير لي بسحر مغر. وبعد ما يزيد على العقود الثلاثة، لم أنل منها إلا الخلاص.. الكتابة الآن هي خلاص روحي، وعليها وبها أعيش متوازناً على عارضة يومي الشاهقة.

للتو أنهيت كتابة فصل جديد من الرواية التي أشتغل عليها منذ ما يزيد على السنة، بعد أن أعدت كتابته، كعادتي، أكثر من مرة.. أذكر يوم سمعت نقرًا خفيفاً على باب مكثبي، التفت من وقفتي خلف النافذة قائلاً:

«تفضل».

انفتحت فرجة صغيرة في الباب، وأطلّ وجه كوثر:

«صباح الخير».

حيّتني وضلعة الباب تُخفي جل جسدها.

«صباح النور».

أجبتها بنبرة مرّجة، وجهدتُ لرسم ابتسامة لقاءٍ على وجهي. خطت هي داخلة بطولها الفارع وخطوتها الواثقة. مدّت كفها تصافحني وقبلتني على خديّ قائلة:

«وحدك».

«دائمًا».

أجبتها وارتباك حضورها المفاجئ يحاصرني. واللحن:

قلتُ اوقفي لي وإرفعي البوشية

جلست واضعة ساقًا فوق أخرى، بفستانٍ كحلي حرير تزيّنه خطوط صفراء رفيعة، وقد لفتتني لمعة الساعة «الشوبارد» التي تزيّن معصمها، وحقيبة «هيرمس» الباهظة الثمن. ولا أدري لماذا شعرتُ أنني مشّت لا أقوى على لملمة أفكارٍ، وأن صرخات متداخلة انطلقت في رأسي.

«جئت حسب الموعد».

نظرة عينيها أو ربما نضارة بشرة وجهها أو بعثرة شعرها الأشقر بجنونه أو رسم شفّتها الصغيرتين أحضر إليّ هيئة ممثلة «هوليوود» الجنوب إفريقية المثيرة «تشاليز ثيرون».

«لن آخذ من وقتك الكثير».

بقيت مختبئًا خلف صمتي أنظر إليها كي تُفصح:

«سيزورك مشاري ليطلبني منك».

خمشت أظافر حملتها النافرة وجهي. أضافت هي:

«أنتَ صديق بابا الأقرب، ولا أحد لي غيرك».

بلعت ريقى الناشف. أنا أكتب حكايتها، وأبدًا لم يدر في خلدي أن تداهمني بطلبها. ما فهمت المغزى خلف خطوتها.

«مشاري موافق».

نبّهني صوتها. ترددتُ أقول أي شيء، فلم أكن لأتوقع الموقف. كيف أخبرها بأنني أكتب حكايتها وأسررتها، وقصة علاقتها مع مشاري بأسمائهم الحقيقية، وأناي أخفيت فقط اسم والدها صديقي؛ احترامًا لأسرار علاقتنا ولحرمة موته؟ فما أكثر ما رددتُ عليه بين الجد والهزل:

«يومًا ما سأكتب رواية عنك».

كان ينتسم كعادته، ويعلقّ بالجملة ذاتها:

«لا تتأخر فقد يداهم الموت أحدا في أي لحظة».

هل كان يهجس بموته المفاجئ ويبحث لي برسالة لم أحسن قراءتها؟

كيف أنقل لها أنها بطلة روايتي، وأناي أضع على لسانها تصوراتي لقصة حياتها وعلاقتها مع مشاري؟

«سنعقد قرانا بعد أسبوع».

نسيت تستخرجني من حفرة أفكارى، فسألتها:

«وأهلك؟»

«لا علاقة بيننا».

بعثت حملتها بشيء من أسى، وأضافت:

«قاطعوني يوم انتقلت للسكن في شقتي».

نظرتُ إليها. فتاةٌ تجهد لنيل حقها المشروع في الزواج، وعيش حياتها بهدوء وفق قناعاتها. دارٌ ببالي: كم هو مكلف، وقد يكون مدمراً، أن تتخطى فتاةٌ حواجز وخطوطاً بئسمةً شيدها المجتمع، ويستमित في الدفاع عنها، وسحق كل من يجرؤ على مسّها أو التعدي عليها.

تملّيتُ جمالها المثير، وأسرع إلى قلبي السؤال: «من أين يأتي الإنسان بحظٍّ زاهٍ يصاحب خطو حياته؟».

«هل أنت موافق؟».

سألتني وقد نرّ رجاءٌ موجعٌ في نظرتها وحسّها.

«نعم».

أفلتُ مواسياً. طفرت مني كلمتي وكأنني أبحث عن طوق نجاة، وكما لو أن قلبها نال ما جاءت من أجله. فزّت واقفة:

«كنتُ متأكدة من أنك لن تخذلني».

تحرك شيء من فرحٍ حلو في نظرة عينيها فأضاء وجهها، أضافت:

«لن آخذ من وقتك أكثر، مؤكد أنك مشغول بالكتابة».

ظل وجهي خالياً من أي تعبير:

«سأتصل بك».

نهضت واقفة، وأجاريها نهضتُ فرمت بنفسها عليّ تحتضني قائلة:

«الله لا يحرمني منك».

شيءٌ أشبه بالغصة أمسك بحسّي فمنعني من أي ردّ.

وبخفة خطواتها انسحبت خارجة وقد تركت شيئاً من روح أبيها ومن عطرها ليبقى معي. وأجرّ خطواتي المتعبّة عدت لأقابل نافذة مكتبي المشرعة على الضياء، وقد نبتت أشواك ضيق مدبّة في رأسي.

كوثر تريد زحي في قصة حبها! حدّثت نفسي وأضفت: أي زجٍّ يعدل

كتابة رواية؟ ويرتفع اللحن كأهدأ ما يكون:

خليني أروي ضامر العطشاني

«زواجنا بيدي..».

نبست أنتِ تضيفين الكلمتين لشطرِ عبارتكِ الأول. نبهتكِ الكلمات لما ينتظركِ بعد ساعات.

تحوم حولك أسئلة الخوف التي استيقظت معك.. مضت عليكِ ستة أشهر وأنتِ في شقتك. من أين يأتي المكان بهذه السطوة؟ كيف له أن يمدَّ يده السحرية العجيبة ليعيد تشكيل عجين أرواحنا؟ ستة أشهر، كأنها صنعت منك كوثر أخرى!

لا تذكرين بأي رواية، قرأتِ مرة، أن السجن يطبع روح السجين بشيء سري مؤلم، يلزمه كالعلقم، يثير المرارة في فم روحه حتى آخر يوم في حياته!

صرتِ تضيفين أحيانًا حتى بأنفاس الخادمة التي تشاركك الشقة. حين تخرج إلى الكنيسة مساء الأحد، شعور غريب يتسرب إليك. تتركك لخلوتك الخالصة مع شقتك.. تختلف خطوتك ونظرتك وتصيخين السمع لهمس الصمت، وأحيانًا تمشين عارية، تاركة لجدران شقتك أن تختلس النظر لتعاريج جسدك!

تأتي إليك كلمات صديق أبيك الدكتور مجدي. تذكرينها كأنك تسمعنيها اللحظة:

«صرتُ أشعر بالغربة حين أرجع لمصر!».

كان من أصدقاء أبيك الذين عملوا في الكويت لأكثر من خمس وعشرين سنة، وكان يشكو غربته حين يعود لتمضية الإجازة في بلاده.

«ما عدت أعرف بعض أهلي ولا أصدقائي ولا محلتي!».

وكان يضيف وشيء من الاستغراب بصوته:

«بعد الأسبوع الأول، يضجُّ أولادي بالشكوى، يطالبون بالعودة إلى

الكويت!«.

قلبك أنتِ لم يأنس بعد لشقتك، لكنك تستشعرين لذة تمسّ روحك.

أضواء الساعة الحمراء تظهر السادسة إلا ربعاً، ما زلتِ ملتفة بكسل الصباح الألد، تتمددين على فراشك في غرفتك.. خلال الفترة المقبلة سيأتي مشاري لشاركك المكان.

لا تدريين كم منه سيكون لك، وكم سيبقى نصيب زوجته الأخرى إن لم يطلقها!

الخوف والهواجس طردا النوم، وأحضرا ذكريات قصتك وحبيبك.. تؤخرين تحيتك الصباحية لصديقك البحر، الذي ينتظرك خلف النافذة في اتساع عالمه وتلألؤ مياهه.

مشاري، يومًا ما سأحكي لك قصصًا من حياتي.. المهم أنا اليوم قبل الظهر سنكون زوجين شرعيين، ولقد حضرت جسدي لاستقبالك. فأنا أشعر بخفة حينما أكون متزينة، متعطّرة ولامعة بكل ثنايا جسدي. إحساس غريب وسري أقرب للذة خفية يمسُّ نفسيّتي، يصاحب خطوي وابتسامتي، ويبقى يهمس بأذني: «أنتِ الأجمل!».

عصر أمس جاءت إليّ «سوزي» فناة الصالون الفلبينية التي تزورني لتعمل لي «المني كير» و «البدي كير». قلت لها: «غداً سأتزوج».

لا أدري لماذا تفاجأت وكأنها لم تكن تتوقعني أتزوج، وأخرجها من دهشتها، قلت لها مبتسمة: «تنظيف كامل».

مرة أسررت لي: «يثيرني منظر المرأة وهي تقوم بتنظيف نفسها».

وببساطتي التي تفاجئك رددت عليك:

«أنتَ دومًا مثار».

ثورة كبيرة فجّرتها عمّتي ألطاف عام ١٩٧٧، سنة مجيئي إلى الدنيا. في تلك السنة حقق أبي حلمها بالزواج ممن تحب. تقدم لخطبتها شاب سني كان صديقها طوال فترة دراستها في جامعة الكويت. فرفض جدي قائلًا: «لا أزوّج سنيًا».

لكن أبي، الشاب القومي الليبرالي المتحرر في تفكيره وآرائه وسلوكه، الذي تخرج في «الجامعة الأمريكية في بيروت» قبل ذلك بسبع سنوات، وقف بوجهه بشدة:

«ترفض شابًا كويتيًّا جامعياً من أسرة كريمة؟»

«سني!».

ردّ جدي مغنّداً رأيّه، وتدخل عمي باقر بعصبته يقاطع أبي:

«اترك أفكارك المتحررة، ولا تتدخل في زواج البنات».

أخبرتني عمّتي الطاف أن جدتي ببساطتها وعفويتها اقترحت:

«قولوا للرجل يصير شيعياً مثلنا».

ولأن أبي يدرك تعلق جدي بتجارته وماله، التفّ يسأله:

«كيف تواجه التجار السنة أصدقاء عمرك؟».

صَفَن جدي للجملة المزعجة، فأضاف أبي لافتاً نظره إلى هول ما ينتظره:

«ستكون فضيحة!».

«الفضيحة أن تزوّج أختك لسني».

انتفض عمي يصرخ برّدّه، وكأنه أدرك تراخي جدي، وأضاف:

«الأصول أصول، لن نزوج سنيًّا».

حكيت عمّتي الطاف لي، أن الأمر شغل الأسرة بكاملها. أخذ نقاشاً حاداً استمر أكثر من شهرين، وكاد عمي باقر مراراً أن يتضارب مع أبي. وأنها كانت تحبّي نفسها عنه بعد أن صرخ بوجهها:

«أنتِ سبب البلوى!».

روت لي كيف أن حبيبها زار جدي أكثر من مرة في دكانه، قبل رأسه، باسطاً أمامه استعدادة لتلبية كل ما يُطلب منه. وأن أبي حثّها على مواجهة جدي وإخباره برغبتها الزواج من هذا الشاب. لكنها كانت تشعر بارتجاف ساقها وأنهما لن تقويا على حملها للوقوف في وجه أبيها. أمضت طوال تلك المدة ترجو أمها باكية أن تقنع أباهما، وظل أبي يحذر جدي:

«إذا انتشر الخبر فستخسر الكثير!».

ولأن جدي التاجر المليونير وزن الأمر بميزان الربح والخسارة، خاف على مصالحه وتجارته وملايينه، وربما استذكر عمق علاقته وارتباطاته بأصدقائه السنة وحياته التي أمضاها منذ ولادته معهم، أو ملّ رجاءات وملاحقات جدتي فوافق هو، بينما اشتط عمي باقر برفضه:

«زواج المصلحة!».

وتزوجت عمتي من حبيبها.

بعدها يزيد على ثلاثين سنة، حين فاتحت أبي في مطلع عام ٢٠١٠ بأن رجلاً ينوي التقدم إليّ:

«يا مرحب».

عَبَرَ شَيْءٌ مِنَ الْبَشَرِ وَجْهَهُ، وَسَأَلَنِي:

«مَنْ الَّذِي سَيَأْخُذُ حَبِيبَةَ قَلْبِي؟».

ولكي لا أطيل عليه، أفصحت قائلة:

«رجل سني».

فجأة تكدر ماء وجه أبي. شعرتُ به يتحاشى النظر إليّ. خفق قلبي بخوفي وهاجسي: هل تغيّر أبي؟ هل انتكس الرجل الليبرالي المتحرر بقناعاته وأفكاره؟

«مَنْ هُوَ الرَّجُلُ؟».

سألني بنبرة أعرفها. نبرة أبي حين يهرب من الإجابة إلى السؤال. شعرت به يمتنع عن التصريح برفضه بشكل مباشر، ولأنني أحبه ولا أريد تعذيب نفسي وتعذيبه، وأمهد طريق الرفض له قلت:

«رجل متزوج وله ثلاثة أطفال».

«ماذا؟».

كالطلقة اخترقني السؤال الصرخة! بعث أبي كلمته بتعجبٍ وانزعاجٍ

واستغرابٍ وألمٍ وحسرةٍ وتكذيبٍ. أطلق سؤاله وكأنه يقول: «لا أصدّق! أنتِ تُقدِّمين عليّ هذه الزيجة؟».

«ترتبطين برجل متزوج؟».

رمى عليّ سؤاله الحارق وقد حمّله نظرة أرجفت قلبي.

يا أبي، غريبة قصص الحب! لا أعلم كيف يلمّ القدر إنسانًا على آخر! طوال عمري كنت أهزأ ممن يقول: الزواج قسمة ونصيب، لكن هذا ما حصل معي!

ظلت سكاكين نظرتّه الحادة تجرّحني، فبررت قائلة بنبرة واهنة كي أخفف من انفعاله:

«سيُطلّق زوجته».

لكنه اشتط غضبًا:

«وأطفاله؟».

شعرت أنه يخفي اعتراضه الحقيقي على مذهب الرجل، مُظهرًا رفضه لكونه متزوجًا. ولا أدري من أين قفز عليّ موقفه من تزويج عمتي. وكما لو أنني أذكره بقراره قلت:

«أنتِ زوجت عمتي الطاف من رجل سني».

بدا لي وكأنني نكأت جرحًا غائرًا في قلبه، أو ذكرته بلحظة مدببة يتحاشى تذكّرها والاعتراف بها. تفصّد وجهه بضيق واضح، وقال بنبرة مهزوزة:

«الوضع مختلف».

صادمة كانت جملة أبي. هل قصد إلى إدانة نفسه، ووصف تحرره وأفكاره السابقة بالخطأ؟ دار ببالي أخبره أن عمتي تُمضي أيام حياتها وزوجها وعيالها كأهدأ ما يكون. لكنني استكثرت عليه المناقشة بعد أن كشفت جملته عورة فكره. ولا أدري من أين انبعثت أمني، فأنا لم أنتبه لوجودها. قالت مخاطبة أبي:

«دلوعة بابا تتزوج سنّيّا!».

ولأن نظراتنا تقابلت، خاطبتني بضيق واضح:

«طوال عمرك تأتين بالمشاكل».

رحت أنظر لأبي كي يردّ عليها، لكنه ظل ساكتًا وكأنه يوافقها الرأي. وبالكاد تطاوعني كلمتي وإعصار بكاء يخضّ صدري، قلت له:

«شكرًا يا بابا!».

ظل متكومًا على نفسه، متدثرًا بعباءة ضيقة وربما حرجه. تلك اللحظة كانت بداية النهاية لعلاقتي بأبي، فقد سورّ هو قلبه في وجهي. ما عاد يحكي لي عن شؤون عمله، ولا عاد يخصّني بما يثقل عليه. حتى إنه صار يتحاشى الجلوس معي، خوف أن أفتح معه موضوع زواجي.

أبي عاش عمره محبًا للفكر والثقافة قارئًا نهماً لكتب الأدب والاقتصاد والفلسفة، ومتابعًا يوميًا لما يجري على ساحة السياسة. رجل اتخذ من الرئيس جمال عبد الناصر والقومية العربية شعارًا لحياته، وكان يرى أن الوطن العربي الموحد قادم مهما وقفت الظروف الصعبة بوجهه. وكان إلى جانب صداقاته لزملائه التجار السياسيين، صديقًا وجليسيًا محاورًا للكثير من الكتّاب والروائيين والفنانين والمثقفين. وعاشقًا للفن التشكيلي، وتكاد لوحات أشهر الفنانين الكويتيين والعرب تغطي جدران بيتنا.

بعد سنتين من مفاتحته بأمر زواجي، دار ببالي أن أطلعه على رغبتني في الاستقلال والانتقال للسكن وحدي في شقة تخصّني. كنت خائفة ومتأكدة من رفضه، لكنني كمن يودّ سماع قناعة قلبه صريحة على لسان الآخر، أو من يتحفز لفقء دمل ملّ وتعب من الحكّ حوله.. كنا نجلس هو وأنا بعد العشاء، بينما جاءت سماء ديسمبر ملبّدة بالغيوم لتجلس بيننا عبر نافذة الصالة الكبيرة. تخيّرت لحظة هدوء، وسرّبت حملتي بحذر:

«أفكر بشراء شقة».

شعرت وكأن تيارًا كهربائيًا صعق أبي. نظر إليّ لثوانٍ قبل أن يسألني:

«تتركين البيت؟».

كان يعني بيته، وربما عني علاقتي به، وانسحابي من حياته وحياة

الأسرة.

«لن أترك أحداً».

وددت لو أقول له إن العالم تغير، وإني أمتلك الحق بأن أحيا حياتي بسلام كما أحب.

منذ كنت صغيرة، وبالرغم من وديّ علاقتنا، ظل أبي ينزعج حين أردّ عليه أو أقول شيئاً لا يعجبه أو يضايقه. دائماً أسرّ لنفسِي: أبي الديمقراطي الدكتاتور! أحياناً يُعلّق بجملة صغيرة، وأحياناً ينام على سكوته لساعات أو أيام قبل أن يردّ عليّ.

«أنا ضد سكنك وحدك».

كنصل السكين لمعت جملته. وأنتظر إتمامها، أوجع قلبي وهو يقول:

«بعد موتي أنت حرة اعلمي ما تشائين».

أبي يمنحني حريتي بعد موته، يأذن لي بالانفصال عن الأسرة! لا أدري كيف فاضت دمعتي، ولا أدري كيف انطلق حسي عالياً بنحبي وبكائي حتي إن أمي جاءت راکضة من غرفتها. هل كنت أبكي موت أبي المخبأ، أو موت علاقتي به، أو أبكي ردّة فكره، وحظي العاثر الذي جعلني أتعلق برجل متزوج وسني؟ سألتني أمي:

«ماذا حصل؟».

كرهت الردّ. انسحبت وبكائي أحرّ خيأتي. ولا أدري ماذا قال أبي لأمي، وتصبّ كلماتها في أذني صرخت:

«شقة للقاء الحبيب».

تجمّدت في مكاني لإهانتها، وللمرة الثانية توقعت تدخل أبي مدافعاً عني وعن تربيته لي، يردّ على اتهام أمي الجارح، لكنه ظل صامئاً. فخطبتها بحرّ لوعتي من وقفتي قاصدة إسماع أبي:

«شكراً على الثقة».

في تلك الليلة رعدت السماء ومطرت بغزارة، وكأنها تحاول أن

تشاركني ألمي. فلقد بكيت كما لم أبك في أي ليلة في حياتي. شعرتُ أنني فقدت أبي. أحسست بالحزن يخنقني، وأني غير قادرة على سحب أنفاسي، وأن صخرة ثقيلة تجثم على صدري. لم أكن أبكي اعتراضه على فكرة انتقالي للسكن وحدي. لكنني بكيت تجاهله الرد على إهانة أمي. كيف لأبي أن يتنكر لعلاقتنا الخاصة، يتخلى عني، أنا التي عشت عمري متعلقة به أصاحب خطوه، وأهب فرحة لتنفيذ كل ما يطلبه مني. كلمة واحدة منه كانت تشعلني وملاحظة عابرة تطفئ هممتي واندفاعي؟ عشتُ عمرًا مقتنعة بأنني الأحب والأقرب إليه! حزّ بقلبي تخليه عني، واستوقفني انتقاله من الفكر الإنساني الرحب، إلى الفكر المنغلق. دار بالي السؤال: هل يتساوى أبي بأمي؟ وما الذي غير أبي ليهوي بأفكاره من علو إلى قاع؟ أبي الذي كانت رוחي تهدأ لحظة أشمّ عطره، واعتصر نفسي لصدرة. الذي كان يضاهي كل العائلة بمحبته لي، مرددًا أمام الجميع:

«كوثر ابنتي الأحب».

ما الذي غير أبي؟

في تلك الليلة بكيت خسارتي لأبي وكأنني أستبق ما سيأتي.. بكيت وجعي لفقدان رجل كنت أستند إليه كلما داهمتني هزة من هزات الحياة الكثيرة، في مجتمع ذكوري متخلف يرى الرجل وحده رمزًا للقوة والحق. ليلتها قررت أن أستند إلى حائط قلبي، فلقد علمتني الحياة أنه في أوقات الشدة، ليس للإنسان إلا أن يستند وحيدًا لحائط روجه. قلتُ أعزي نفسي: لأبي الحق أن يتصرف كما يشاء، ولي حقي.

مع اندلاع التظاهرات العربية في بداية ٢٠١١، وتحديدًا أحداث مصر، اندلعت روحٌ جديدة في قلب أبي. تغيّرت نظرة عينيه وحسه. أبي صاحب الخمسة والستين عامًا امتلأ حماسًا يتابع مظاهرات وصدّامات «ميدان التحرير» لحظة بلحظة. ظل يردد وكل ما فيه يضح بانفعاله:

«أخيرًا تحركت الشعوب».

ويخاطبني بحسٍّ يقطر حماسة:

«الشباب والناس البسطاء خرجوا هاتفين: الشعب يريد إسقاط النظام».

هجر أبي عاداته، صار يُمضي الساعات ملتصقًا بشاشة التلفزيون، يتابع الأخبار. يتنقل بين محطاتي «الجزيرة» و «العربية». ولأننا نعيش نحن الثلاثة في البيت: أنا وهو وأمي، شاركته جلساته وأحاديثه، وكم ردد عليّ بنشوته:

«عشنا عمرًا ننتظر هذا اليوم».

كنتُ بين آنٍ وآخر أختلس النظر إليه: الرجل الكويتي الغني الليبرالي الذي درس في الجامعة الأمريكية في بيروت. رجل القومية الناصري، صديق الكتاب والمثقفين العرب.. حين اندلعت أحداث ليبيا واليمن وسوريا، لبس وجه أبي سحنة مكفهرة مخيفة ما عرفته بها. قال لي:

«سيتغير الوطن العربي».

وأضاف:

«المواطن العربي كسّر جدار الخوف».

أربكني أبي بتحوله. عشت عمري لصيقة به. لا يكاد يمرّ يوم دون أن نجتمع على الغداء، نجلس في غرفة المكتبة، فيحكّي لي عن اجتماعاته ومشاريع سفره ولقاءاته بأصدقائه الكويتيين والعرب في بيروت والقاهرة ودمشق. وما يلبث أن يشير إلى كتاب، ويقول:

«هذه رواية رائعة».

ما الذي غيرّ أبي؟

«الشعوب تحركت».

ظل يكرر عليّ. قلت له مرة:

«الأحزاب الأصولية قفزت على السلطة».

وكما لو أنني قرصته على مكان وجعه. دخل كهف سكوته المظلم، وبعد فترة قال:

«سرقوها..».

خنس لثوانٍ ليقول بصوت موجّع:

«الممارسة ستفضحهم. لن يعمرّوا طويلاً. لكن..».

ترك كلمته الأخيرة فاعرة فاهها المخيف، وبقيت أنا أنتظره يكمل، وبعد فترة انبعث صوته دون أن ينظر إليّ:

«سيكون الثمن غالياً».

التحم أبي فجأة بالتلفزيون، ظل لأكثر من سنة يتابع الأحداث العربية الدامية ليل نهار، وتدرّجياً راح يبتعد عنها، حتى هجرها وهجر حياته التي اعتادها واعتدّ أن أراه فيها.

جلوسنا معاً أمام التلفزيون رمم شيئاً من الفتور في علاقتنا، لكنه ما لبث أن انزوى بنفسه، واستوطن وحدته في مكتبته وقراءاته. أفرغتني هيئته مساء دخلت عليه المكتبة. كان ممسكاً بأحد الكتب. غائباً وسط صمت ووحدّة غرفته، ودون أن ينظر إليّ قال:

«أود البقاء وحدي».

ما الذي هزّ أبي وأثار حماسه، وما الذي كسره ورمى به إلى حفرة وحدته؟

سألته مراراً:

«ما بك؟».

«لا شيء».

بعث بنبرة واهنة. رحت أنظر إليه، ويبعد عني نظرة عينيه الرمادية أرسل وحزن صوته:

«نحن ندخل نفقاً مظلماً».

دار ببالي أسأله عمن يقصد بنحن، لكنه صمّت بعدها وقد ران اليأس على وجهه قبل أن يقول:

«ستحتاج بلداننا الفوضى، ويلتهم العنف الأصولي والدم أيامنا القادمة».

أحداث البلدان العربية جعلت من أبي إنساناً آخر. بموت عشرات

الآلاف، ووصول الأحزاب الأصولية إلى القيادة. اكتسب وجهه حزناً وتهذلت نظرتة. خرس عن حكاياه ودخل صمناً حجراً كصمت أهل القبور. انصرف عنا؛ أنا وأمي. ما عاد يخرج لجلسات ديوانية أصدقائه، وحتى مجيئهم إليه قلَّ جداً. وحده عمو طالب ظل يمرّ به بين آن وآخر. يجلسان معاً وقد يحمل له رواية أو أحد كتب سلسلة «عالم المعرفة» الصادرة عن المجلس الوطني.. أصرّ أبي علي أن يصادق وحدته في مكتبته. لجأ لقراءاته منطوياً على هواجسه وألمه. وفي آخر حديث لنا، همس بي بحسٍّ يقطر توجعاً:

«صار الحلم بعيداً!».

عجبة هي أمور الحياة. حالة أبي الجديدة بكآبته وعزلته انعكست على علاقتي بمشاري، فما عدت أتصل به، ولا عادت روعي تطرب لاتصاله، ولكنه فهم أنني مللت مماطلته، انكسر مراراً وهو يعترف لي:

«أحبك».

وأعاد عليّ وعده:

«سأرتب وضعي، ونتزوج».

كان يتهرب من كلمة طلاق.. أفهمته أن ضيقي لا علاقة له بعلاقتنا وزواجنا، وأن قلبي يتقطع حين أرى أبي بيأسه وعزلته وصمته، لكن كل شيء انفرط يوم انطلقت صرخة أمي الملتاعة:

«أبو جميلة!».

لا أدري لماذا تأتي كل هذه الذكريات إليّ في هذا الصباح.. كأني أودّع عمراً لأدخل حياة جديدة بزواجنا.. البارحة تصورت أن صباح اليوم سيكون أحمل صباحاتي، وها أنا ممددة على فراشي، وإلى جانبي تتمطى أسئلة الخوف بين الفينة والأخرى!

خبرتي مع صديقاتي لا تسرّ. كل واحدة تشكو عليّ طريقته مرّ الشكوى من مشاكلها مع زوجها! حتى إنني بدأت أتيقن أن بعض الفتيات يتزوجن من أول رجل يطرق بابهن دون أي تروٍّ، وأن الفتاة تلهث وراء الزواج أملاً في استقرار عاطفتها وإكمال وجودها الإنساني؛ لأن روحها تهفو لمعايشة حياة أخرى؛ هرباً من الوحدة والعنوسة، لكنها سرعان ما تقع في عناء الحياة الزوجية وشقاؤها.

حين زرت بيت عمو طالب قبل مدة، لم أجده، وبعد أن أنهيت لعبي مع الصغيرة فادية، خرجت إلى الصالة للجلوس مع شروق:

«تعبت».

شكوت لها أبثها نغاد صبري، فراحت ترنو إليّ بهدوء نظرتها، فأكملتُ أخاطبها:

«لا أدري كيف ستنتهي علاقتي بمشاري».

شعرتُ أنها ارتبكت، وكأنها تخفي شيئاً عني. ولحظة قلت لها:

«أنا خائفة».

شرحت لها أن كل صديقاتي يشتكين من أزواجهن، علا وجهها ما يشبه ابتساماً ذابلاً، وتنهدت قائلة:

«وأنا أشكو من طالب».

لثوانٍ اعتقدت أنها تقول جملتها على سبيل المواساة، لكنها أكملت ونبرة توجع في حسّها:

«لا أكاد أجلس معه، طوال وقته بين القراءة والكتابة».

وانعطف صوتها وهي تبثني شكواها:

«في السنوات الأخيرة علا الضيق نظرتة، وصارت أبسط الأشياء تثير غضبه وصراخه!».

رحت أنظر إليها وقد غشي وجهها شيء من ألم:

«ما عاد يحتمل أي صوت أو نقاش في البيت، يريد لنا أن نعيش في الصمت..».

سكتت فجأة وقد تندت عيناها بدمعهما، ومن بين تحشرج حسّها قالت:

«يتحسس أكثر حين يكون في كتابة رواية جديدة».

أنا عشت طوال حياتي لا أقف عند رجل، لكنني وقفت عندك يا مشاري!

أذكر تلك المكالمة، يوم طلبت مني لأول مرة أن نلتقي..

في الكويت، لقاء شابة بشاب، أو امرأة برجل في العلن، في مكان عام أمر لا يُقدم أحدٌ على اقتراحه. ليس من فتاة تجازف بسمعتها وسمعة أهلها وتجالس شاباً حول فنجان قهوة في مكان عام! يومها قلت لك:

«حدد المكان».

ردودي الجاهزة تصيبك بالصدمة. وتلكؤك يضايقني. ولأنك سكت سألتك:

«أين تريد أن نلتقي؟».

بعثت تردّ:

«اختراري المكان».

«أي مكان عام».

اقترحت عليك فخنست خلف سماعة التلفون. أنتَ رجل معروف في المجتمع وملتزم؛ لذا تخاف من لقاء أي امرأة والجلوس معها في مكان عام؛ حرصاً على سمعتك وعلى استقرار زواجك. وبعد ثوانٍ أرسلت جملتك التي ترشح برائحتها الذكورية الزنخة:

«نلتقي عندي في اليخت».

«نلتقي في أي «مول» أو مكان عام».

أكدت عليك، ففح صوتك:

«اليخت أستر».

«أستر لك».

وأصارك، قلت لك:

«لن أجيء إلى يختك، ولن أجتمع بك في شقة خاصة أو شاليه».

«أنتِ لا تريدين لقائي».

«صحيح».

أحببتك، وأسرعتُ أنهي المكالمة.

كنتُ في الصف الثالث ثانوي مساءً كلّمت ولداً لأول مرة في حياتي، بعد المكالمة الثالثة اكتشفت أنه يحوم حول الحديث عن الجنس، وأقطع عليه الطرق طلبت منه أن يتصل بي بعد أن يقرأ آياً من روايات دوستويفسكي فلم أسمع صوته بعدها. وكنت في السنة الأولى في الجامعة حين تعرفت على أسعد، شاب هادئ ولطيف. أمضينا فصلاً دراسياً بأكمله وهو يكتفي بالجلوس خلفي يشتم عطري، ويستمتع بالنظر إليّ دون أن تصطاده عيناى. حين سألته:

«لماذا لا تنظر في وجهي؟».

انخطف لون وجهه، وتبعثر لسانه. وحين سألته:

«أنتَ تحبني؟».

ترك علاقتنا وهرب مني.. كأني بروح الرجل تعشق من تمثّل أمامه دور البريئة.. ربما بسبب ثقتي بنفسى وجرأة ردودي؛ أو بسبب شكلي وهيئتي وملابسي، كثير من صديقاتي ومعارفي يظنون السوء بي؛ لا لشيء إلا لصراحتي في قول ما يجب قوله!

منذ مدة لم أذوق سيجارة علي الريق. اليوم يوم زواجي، وأجدني مشتاقة لسيجارة حتى قبل أن أشرب قهوتي الصباحية.. مضت عليّ قرابة خمس عشرة سنة وأنا أدخن. بدأت التدخين وأنا في الصف الثاني ثانوي، وكان عمري وقتها ست عشرة سنة. اصطحبت صديقة معي ودخلنا الحمام. هناك سحبت النّفس الأول من السيجارة. بعد أقل من أسبوع، وشت بي إحدى التلميذات للمدرّسة الأولى، فنادت عليّ:

«تدخين في الحمام».

صرخت عليّ بجملتها وصوتها ونظرة عينيها تطالبني بالنكران ودفع التهمة، فقلت:

«المدرسة تمنع التدخين في الساحة».

قفز الاستغراب على ملامح وجهها، علا صوتها صارخة بي:

«بنت».

لكن صرختها مرت من بين ساقيّ أنا الواقفة، بينما هي الجالسة خلف مكتبها:

«سنتصل بأهلك».

«أنا أدخن مع أبي».

لا أدري كيف خرجت جملتي، فزاد ارتباكها، وطرّدتني بعد أن فتشت جيوبي بأصابع عصبية. في اليوم التالي، وقعتُ على تعهّد لدى المشرفة الاجتماعية بأن أتوقف عن التدخين وإلا سأعرض نفسي للفصل من المدرسة.

كنتُ في الصف الثالث ثانوي يوم طردتني ناظرة المدرسة، فصلتني لمدة أسبوع كعقاب على عراكي مع أبلّة سهير مدرّسة مادة الرياضيات.. لم يتقبّلها قلبي لحظة وقعت عيناى على وجهها في أول حصة من العام الدراسي. ومؤكّد أنها نفرت مني بما يعادل ضيقي منها، فالبشر، وخلافاً للمحبة، يتنافرون كرهاً بالدرجة نفسها. مع كل درس كان ينمو في صدري وصدرها جبل البغض. كانت تقصدني في كل حصة لحل الصعب من الأسئلة، ويدغدغها التفكه بإجاباتي إذا حدث عن الصواب. ولا تكاد تعتقني من نظراتها المسلطة على كل حركة أقوم بها. وأكثر من مرة عاقبتني بحبسي في الفصل أثناء الفرصة.

لا يمكن أن أنسى تلك الحادثة. كانت حصة الرياضيات هي أول حصة في ذلك اليوم. قادتنا أبلّة سهير من طابور الصباح إلى الفصل، ولحظة دخولنا طلبت منا كشف دفاترنا على حل الواجب المطلوب. وكالعادة بدأت بي أنا. وقفت بجانب مقعدي:

«أين الواجب؟».

قدمت لها دفترتي، وقد شعر قلبي أن أمراً سيئاً سيقع. بقيت جالسة، فصرخت بي:

«قفي».

راحت تدمدم بكلمات لم أفهمها. شيءٌ ما أمسك بي عن الوقوف:

«فزي يا بنت».

صرخت بصوت أعلى، وأضافت:

«قلة أدب».

فاجأتني تهزّ الدفتر بوجهي:

«أين بقية الواجب؟».

«هذا كل الواجب».

«مش صحيح!».

قالت بلهجة عصبية، بقيت أنظر إليها، وأنا لم أزل جالسة، فمدت يدها
تمسك بكفّي تهزّني:

«قفي».

كرهت إهانتها، حاولت أبعد يدها عن كفّي، فانطلقت مسبتها:

«حيوانة».

وارتفعت كفها لتدوي صفعتها على وجهي. شعرتُ أن شرارًا متناثرًا
تطير من عينيّ وخدي، ولا أعرف كيف قفزتُ عليها! نشبتُ كفّي في
جانبى رأسها، دفعتها لتقع على ظهرها، وجثمتُ على صدرها وقد
نبتت أظافري في جلدة رأسها أكاد أنتزعها، بينما أسناني تصدر صريرًا
عاليًا.. على صوت صراخها، تدخلت المدرسات ليخلصنها من بين يدي.
ومن يومها صار جميع من في المدرسة يناديني ب «النمرة».

غريبة هي الحياة! كنتُ أصرّ على ممارسة كل شؤون حياتي في
العلن. لكن، علاقتي بك انتهت بأن أوافقك على زواج سري!

ربما هذا ما يخيفني. سأذهب اليوم إلى قرارٍ لا أدري إلى أين
سيأخذني!

ما توقعت يومًا أن أروض لإرادة رجل وأكون زوجة ثانية! وكنتُ سأنفجر
بضحكة مجلجلة لو أن عرافة أخبرتني قائلة: ستتزوجين رجلًا متزوجًا
وله أطفال!

عادت الأسئلة تتحرك قرب رأسي: ما الذي يجبرني على مسيرة
مشاري؟ أمي صرخت بي في عراكننا الأخير:

«خلصوا رجال الكويت؟».

لطمني سؤالها، وهي تضيف:

«سني ومنتزوج وعنده ثلاثة عيال!».

ولأني بقيت ساكنة أكملت تسألني:

«كيف ترضين على نفسك؟».

قاس سؤال أمي! خجلت منها ومن نفسي. لم أخبرها أنني أحببت
مشاري كما لم أحب أي رجل في حياتي. وأن الحب يضعضع قناعاتنا
فننجر خلفه برؤوس مطاطة.

مشاري، سرُّ هو الحب! خيالات حياة ملونة تلعب بنا فنتبعها
كالمنومين! لا أدري كيف أحببتك، ولا أدري كيف تعلق قلبي بك!

قد لا تدري بأني لن أنسى تلك اللحظة، مساء كنا أنا وأنت في
سيارتي نجلس في مقابل بحر منطقة «الشويخ»، لحظة انبعثت
سيارة الشرطة. توقفت بجانب سيارتي، وترجل شاب شرطي لينقر
على زجاج نافذتك، فاهتز شيء من الخوف في قلبي. أنزلت أنت جزءاً
من زجاج النافذة، وتزجره قلت:

«نعم؟».

«من هذه المرأة؟».

سألك هو بنبرة مستغزة رداً على نبرة حسك، ودون أن تردّ عليه،
رفعت زجاج النافذة، وقلت تأمرني:

«سأنزل أنا، وتحركي أنت».

فتحت الباب بعصبية واضحة، ومن خلف الزجاج المرفوع وصلني صوتك
تصرخ بالشرطي.. قد لا تعنيك تلك اللحظة، وربما طمرتها أحداث كثيرة،
لكنني كلما تذكرتها تحرك شيء في قلبي ليقربني منك.

يا مبشاري يا حبيبي، المرأة في كل مكان تعشق رؤية حبيبها يشتمط مدافعاً عنها.

مشاري، إذا سارت الأمور كما خططنا لها، فغداً لن أكون هنا، سأشرب قهوتي وأتناول فطوري معك في جزر المالديف.. لماذا أنا خائفة؟

يُحزن قلبي أنك تغيّرت.. جنّني عشقك واندفاعك للمغامرة، وهأنذا أراه يذوي دون أن تشعر أنت به حتى قبل أن نتزوج!

يوم زرت «يختك» بعد كثير إلحاحك. كان البحر رائعاً. ارتديت أنا لباس النجاة وطلبت منك أن تلبسه، وحين رفضت قلت لك:

«سأنزل».

أسرعت توافق. وخلافاً لاتفاقنا تحركت باليخت، فذكرتك:

«اتفقنا أن أرى اليخت، ونتغدى معاً».

ما إن تحرك اليخت حتى تغطت سحنة وجهك بلونٍ أخافني. ابتعدنا عن الشاطئ، فبدت منطقة «السالمية» بأبراجها وعماراتها، ومن الجهة الأخرى لاحت أبراج الكويت الثلاثة بتدرج ألوانها الزرقاء.. كانت الساعة قرابة الثانية ظهراً، وبحر الكويت مرآة بين الأزرق والرمادي والأخضر. رميت أنت المرساة، وبدأت بفتح أكياس الغداء، لكنني كنت أشم رائحة رغبتك أكثر من رائحة الأكل. اقتربت تلتصق بي تقبلني. ولأنني كنت قد اتخذت قراراً بعدم السماح لك بمسّي، قلت لك:

«نتغدى..».

نسيت أنت الأكل، ونسيت وعدك لي .. ولأنه لا يمكن لرجل ممارسة الحب مع امرأة إن هي لم ترد. رفضت نفسي مبتعدة عنك، وأشرت إليك:

«نرجع».

تصورت أنت أنني أقول كلمتي لأنني ضعفت، أو كنوع من التمتع والدلال، فمددت يدك نحوي لتحضنني، لكنني صرخت بأعلى صوتي:

«خلص!».

ربما جنون نبرة صوتي أو توحش نظرة عينيّ نطق بضيقى ونفوري منك. فتحولت رجلاً فأراً.

«مغفلة من تثق برجل!».

قلت لك والصراخ والضيق بحسّي:

«ارجع».

رفعت المرساة بمذلة. بقيت بعيدة عنك، ولحظة توقف اليخت، لملت ضيقى من نفسي ومنك، ومسرعة أخذت طريقى للنزول، فلحقنى صوتك الصفيق:

«نتغدى».

ودون أن ألتفت إليك رددت:

«كُلّ وحدك».

-V-

هنا في غرفة مكتبي، يُعاود اللحن التموج في روحي، فأنصت لمحمود
الكويتي يردد وحسّ قلبه الشجي:

الخد ياضي لي برق وسميه والعين تشبه ساعة الرباني

أتخيل تناغم خطو راقصات السامري بثيابهن السود الطويلة والمذهبة
ب «الزري»، والتي تشف بحياء أسر عما خلفها من ثياب، وهن يتهادين
بهزّ أجسادهن كأهدأ ما يكون الهزّ، في ساحة الرقص جيئة ورواحًا.
ويلمع في ذهني السؤال: أي معنى ماكر تعجز عنه اللغة، فيتصدى
الجسدُ بحركته للروح به؟ أي مناداة محبوسة يتخلص منها ويطلقها
فتأخذ طريقها لسلب لب الآخر! استحضر الشاعر وهو يجنّ برؤية لمعة
البرق في خد امرأته، ويذوب بسحر عينيها اللتين تشبهان بسعتهما
ساعة ربان السفينة. ولا يملّ اللحن من التذرع لخاطرها متوسلاً:

إرفعي البوشية

هنا في سجن غرفة مكتبي، يقرصني «الاسك» في ظهري، ينبهني
يرسل تنميل الخدر في ساقي اليسرى، فأتحامل على نفسي، أنهض
وألمي؛ لأدور في غرفتي.

في أحيان كثيرة، أشعر كأن روحي عطشة لشيء لا أعرف كنهه!
يقسو العطش عليّ، فتنبت الوحدة أنيابها المدببة في لحم قلبي!

احتاجت الوحدة لسنتين كي تثق بي وتأمين لي وتستأمنني على رفع
نقابها الأسود، كاشفة عن وجهها المجذور، وصادقتها وأنا أزيح الغطاء
عن بئر آلام قلبي كي أتسامر معها وأبثها همومي.

مع نهاية ٢٠٠٨، وبقصد التفرغ للقراءة والكتابة اخترت ترك وظيفتي
مديرًا لإدارة الثقافة والفنون في المجلس الوطني، والعودة إلى

الإدارة الهندسية بصفتي مهندسًا مدنيًا.. صحيح أنني بقيت موظفًا في المجلس، لكنني أدت ظهري لأضواء المنصب الحكومي، وكأسرع ما يكون صَدَّتْ تلك الأضواء بوجهها وابتعدت وأهلها عني. حتى إن البعض ممن كان يتقرب ويتودد لي بسبب مركزي ونفوذتي، صار يستكثر مجرد السلام عليّ.

استوقفني الحدث، وكيف أن البعض يتقرب منك لمكانك لا مكانتك. رحت أتملى بمتعة خبيثة انقطاع وصل بعض معارفي من داخل الكويت وخارجها، وكم تكشفت لي أنفُسُ بائسة!

جئت زائرًا مقيمًا هنا بين جدران غرفة مكثبي في المدرسة القبلية، ومعني أتت الوحدة تشاركني فسحة المكان، ودرج الصمت يحضر ليغمس حرف خبره معي في كأس الشاي الذي أحتسي.. في السابعة والنصف صباحًا أدخل مكثبي ملقيًا تحيتي على الفراغ. أجلس خلف مكثبي، أمدّ يدي إلى جهاز المسجل الذي ظل يلازميني منذ بدأت رحلة العمل عام ١٩٨٢، لتنطلق موسيقى هادئة بالكاد تُسمع، تمسّد نوتوات الهُنا.

أبدأ يومي بتفحص الرسائل الواردة إلى «إيميلي»، وأمرّ على صفحتي في «الفيس بوك» و «التويتر»، لأتابع بعدها ترتيب أمسيات جلسات «الملتقى الثقافي»، الذي أسسته لتسعد روحي بقاء أصدقائي الأدباء والفنانين في بيتي بين مساء أحد وآخر. ثم أتفرغ للكتابة قرابة ساعات ثلاث، قبل أن تنبهني معدتي لجوعها، فأتناول «سندويشة» تعدها شروق زوجتي، وتدسّها صباح كل يوم في حقيبتني. لأطير مسرعًا إلى متعة القراءة حتى الواحدة والنصف ظهرًا.

هنا في غرفة مكثبي، وباستثناء ألم «الديسك» والوحدة والصمت لا يشاركني أحدٌ خلوتي.. يومًا بعد يوم تعلمتُ تجاهل خفق أجنحة الوقت طوال الساعات خارج الهُنا. أظل محاورًا لصمت ناطق يأخذ بيدي فأكتب جملة في روايتي الجديدة. لأقرأها مرات ومرات فأمحوها لأعيد كتابة غيرها.

ليس من يوم يشبه آخر، لكنها الأيام تلبس ثوب وقتها وتمشي خطو الدرب نفسه قاضمة لحظات عمرٍ لا يعود. أذكر أنني كتبت مرة على صفحتي في «التويتر»: «الأيام تنتزع حصتها من لحظات أعمارنا وتغادر إلى غير رجعة!». أحيانًا تحطّ سحابة جزع أسود فوق روحي، أتأمل سجنني بوحدتي في الهُنا، فأهرب إلى عالم مواقع الإنترنت، أغوص

في قراءة مواضيع النقد والشعر والموسيقى، أو أعيش أحداث فيلم وثائقي على موقع «يوتيوب».

قبل ثلاثة أيام، فزعتُ حين رنَّ جرس تلفون المكتب. لثوانٍ رحت أنظر إليه، أربعة أشخاص يتصلون بي: شروق، وابنتي فرح، وصديق عمري عبدالعزيز، وأحيانًا صغيرتي فادية بطلباتها الملونة. ولبرهة توقعت أن تكون شروق هي المتصل.

«ألو».

«صباح الخير».

ميّزت صوت كوثر بنبرته المبهّرة بنكهة التدخين:

«تستقبلني أنا ومشاري؟».

فاجأتني ترمي بسؤالها عليّ. ولأن طلبها أسرع يحضر أباهما في قلبي، قلت:

«أهلاً وسهلاً».

«نصف ساعة ونكون عندك».

شوّشني طلبها بزيارتها مع مشاري، فأنا ما سبق لي أن قابلت الرجل أو جلست معه باستثناء رؤيتي لصوره في الجرائد كمسؤول في الدولة. أسرعيت أترك توقعي لمقابلتهما، أعود متعجلاً لأضع لمساتي الأخيرة على الفصل الذي أكتب.

«فسأبدأ مشوار..».

عبارتك تكاد تكتمل. أضواء الساعة الحمراء التي تجاور أنفاسك تشع بالسادسة والربع، نظرت إليها وكأنك تذكّرينها بالوقت فما زال النهار في أوله. خادمته الفلبينية نائمة، بعد قليل ستستيقظ لتعدّ لك فنجان قهوتك الصباحية.

أبوك عودك على طقس فنجان قهوة الصباح.. هناك في بيت الدسمة، في زاويته التي يقرأ فيها الجرائد باكراً قبل خروجه إلى عمله، كان يتلذذ برائحة ومذاق فنجانه. وكان يحرص على تجهيز قهوته بنفسه. لا يشربها من يد صانع آخر. بيتسم قانلاً لأملك:

«أنا أخبر بقهوتي».

ويعيد عليها في كل مرة:

«الشاعر محمود درويش له قصيدة رائعة عن تعلقه بفنجان قهوته!».

مساء انتقلت إلى هنا، وبحزن الليلة الأولى، تكلمت مع خادمته تشيرين إلى ركنٍ يقابل البحر:

«أحضري قهوة الصباح إلى هنا».

ربما لن يوافق مشاري على دخول الخادمة عليكما في غرفة النوم.

المكان يلبس علاقات وعادات أهله.. أي روح سيبتّها مشاري في جوانب شقتك حين ينتقل ليعيش معك؟ كثيراً ما تخيلت وجوده إلى جانبك في الصالة تشاهدان فيلماً، أو ترحبان باستقبال ضيوف.. ينتشر شيء من الفرح في قلبك.. هل سيخبر مشاري أحداً من أصدقائه عن زواجه منك؟ وهل ستستقبلان أحداً في شقتكما، أم ستبقين ملاذ مشاري وملجأ هروبه من زوجته ومتاعب عمله؟

منذ فتحت عينيك، مع أذان الفجر وأشواك خوف أسود تدبّ عليك.. تستذكرين منعطفات قصتك ومشاري، وارتجافات لحظات حياتك

المقبلة بين الأمانى والرغبة. ربما كان هذا آخر صباحات الوحشة..
وحدك والصمت تكشفان هواجس قلبك لجدران غرفتك. لا يشاركك إلا
خوفك مما هو آتٍ، بينما يبقى البحر في حبس حوضه الرباني
المترامي، يتماوج خلف ستارة النافذة منتظراً تحيتك التي تعود عليها.

أرواحنا الضعيفة لا تحتمل ثقل وطأة الحزن، ولا خفة لحظات الفرح؛ لذا نحتاج دائماً لمن يقف إلى جانبنا.. كأني أدرك متأخراً معنى اليتيم، يتم مشاركة الأحباب لحظات العمر الأجل! يؤلمني أن أحداً لن يقف اليوم إلى جانبي يشاركني يوم زواجي، يزغرد ويرقص فرحاً ويهنئني بقبلاته. أخيراً أدركت أن مناسبات الفرح لا تكون فرحاً إلا بوجود من يشاركنا فيها.

أخواتي الأربع تزوجن، ويوم عقد قرانهن كانت أمي تشتت وتوزع بين انشغالاتها وسعد توقعها وفرحها. يشتعل ويضج بيتنا بصخب الحركة والفرح والأصوات المتداخلة وابتسامات الوجوه المستبشرة. تأتي عماتي وخالاتي وصديقات أمي ليشاركنها احتفالها. تجهد في عمل «سفرة القران» وتزينها كما هي في معتقداتنا: صينية وعليها بعض الحلوى يتوسطها القرآن كدستور حياة، ومراة لامعة ترد العين والحسد عن الزوجين، وتاملهما بحياة سعيدة، وإلى جانبها حوض صغير تسبح به سمكة زينة دلالة خصب.. اليوم لن أعطس قدمي بماء ورد، ولن يطحن أحد سكر نبات فوق رأسي متفائلاً بحياة زوجية يغمرها السعد، ولن أستلم ليرة ذهبية.

اليوم سأخرج من شقتي وحيدة، وسأمشي وحيدة إلى جانب مشاري في ممرات قصر العدل الضيقة؛ للوقوف أمام قاض، أعلن له موافقتي على الزواج كي يوثق ويصدر ورقة عقد قراناً. البارحة سألني مشاري:

«ماذا تريد من مهر؟».

رحت أنظر إليه، ولا أدري لماذا جاء إلي وجه أبي، وخنقتني عبرة مفاجئة. دفعت قائلة:

«لا شيء».

وكما لو أنني أستذكر شيئاً غاب عني، استدركت:

«خاتم».

ربما، الفتاة تبدأ الحلم بفرح يوم زواجها لحظة تنبيه لتكوير أجزاء جسدها. ولحظة تطرق مسامعها الكلمات الملونة التي تتطاير من حولها:

«يا حلوة!».

«ما شاء الله كبرت البنت!».

«يا عروسة!».

أمي كانت تتوقع أن أتزوج قبل أختي ثريا. كثيرون تقدموا لخطبتي، لكنني رددتهم أجمعين. ما اقتنعت بأحد منهم. وفي كل مرة كنتُ أرفض قائلة لأبي:

«لن تجربني على الزواج!».

يطالعني بتلك النظرة الحنون التي أحب، ويهمس بي:

«أنتِ تختارين زوجك».

ويخاطب أمي التي لا يعجبها أسلوب كلامه معي:

«لن نجبرها على رجلٍ لا تحبه».

يا أبي، ما جبرتنني على رجل، لكنك انتفضت معترضاً ولم تسمح لي بالزواج ممن أحب!

لا أذكر متى بدأ هاجس الزواج بالمرور عليّ.. أتذكر كيف كنت أقف عارية أمام مرآة حمامي الكبيرة في بيت الدسمة في سنوات مراهقتي. أتفحص تفاصيل جسدي، وفي كل مرة يخرج السؤال إليّ من المرأة: «من هو الرجل الذي ستتعرين أمامه؟».

مع تقدم سنوات عمري، فترّ الإعجاب بالجسد، ليتحول الهاجس إلى الاطمئنان عليه وتفقد عنفوانه من ذبوله.

لا أظنني سأقف عارية أمام مشاري اليوم بعد عقد قراننا.

كنا في أسبوع علاقتنا الأول حين رمى حملته:

«أنت أحلى بكثير مما توقعت».

بقيت ساكنة، فأضاف:

«طوال سنة وأنتِ تتعاملين معي برسمية، تصوّرتكِ امرأة جادة».

وضحك وهو يقول:

«اعتقدتك محجبة».

وتلكأ قليلاً قبل أن يقول:

«ما كنت أظنك امرأة لا تُقاوم!».

شيء ما أزعجني في جملته، وأعبر له عن ضيقي قلت:

«لا أحب هذا الوصف».

أشعر بقلبي يخفق الآن وأنا أتخيّل بأني سأصطحبه ظهر اليوم، أتأبط ذراعه وأتمشّي معه في مجمع الأفنيوز.. أتمنى لو نتغدى سوياً في أي مطعم أمام الجميع. أتمنى لو يشاهدني أخواتي وأصدقائي ومعارفي. وبودي لو يشاهدني كل أهل الكويت قبل أن نسافر أنا وهو مساءً.

منذ فتحت عينيّ فجر اليوم، وأنا وحيدة مرمية والصمت والهواجس هنا في غرفتي. لا أدري لماذا تتكوم أسئلة الخوف إلى جانبي، بينما شيء أشبه بالألم يلفّ خاطري وقلبي!

ما طمعت بشيء مادي من وراء تعرفي على مشاري.. رسائله التلفونية واتصالاته وإصراره بملاحقته، جعلتني أفكر فيه.

«ماذا تريد مني؟».

سألته في إحدى مكالماتنا الليلية، فأسرع يردّ عليّ:

«ماذا تتوقعين أنتِ؟».

«أنتَ رجل متزوج..».

«الله يلعن الزواج».

قاطعني وقد لاح الغضب على حسه، وكما لو أنه يرمي بجمرة تحرق لهاته:

«أنا أحبك».

ابتسمت بيني وبين نفسي غير مصدّقة، أو كأني أستكثر الحب على رجل متزوج وله أطفال:

«والله العظيم أحبك».

تعلقت بمشاري رجلًا يشاركني لحظات أيامي.. بعد مضي ثلاث سنوات على علاقتنا، لاح لي ما يشبه يقينًا بأنه يحبني، وأنه على استعداد لتطليق زوجته، والارتباط بي والعيش معي. بدت لي تلك الورقة الرسمية البائسة اعترافًا اجتماعيًا بارتباطنا.

لن يأتي أحدٌ من أهلي ليشاركني لحظة عقد قراني، ولن ألبس ثوب الزفاف الأبيض، ولن تكون هناك حفلة وغناء ورقص وزغاريد، ولن ألتقط مع مشاري صورة للذكرى في مقعد زواجنا المزين بالورود.. أكذب عليك يا مشاري لو قلت لك إن كل هذا لا يهمني! طلبت ورودًا لشقتنا، واتفقت مع مصور وسيأتي عصر اليوم ليلتقط صورًا لنا، تحفظ ذكرى يوم زواجنا!

ما تصورت يومًا أنني سأفكر في أمور كهذه، وأن روجي ستقف مكحلة بحزنها على مظاهر كنتُ أظنها تافهةً، ما عرّتها انتباهًا طوال عمري! يا حبيبي يا مشاري، أرواحنا، بعيدًا عن الوعي، تعاني وجعًا حين تمضّ السكين في لحمها الحي! ها أنا أقتنع أن يوم الزواج يوم مختلف في حياة أي فتاة أو امرأة، وربما يكون يوم حياتها الأهم، ولكن.. البارحة قلت لي:

«زواج هادئ».

أردت أن أصحح لك: «زواج السر، زواج السرقة»، لكنني تحاشيت إشعال خلاف جديد بيننا.

ترددت أخبر صديقتي منى بموعد زواجنا. شيء ما منعني.. في مرة سابقة ألمحت لها:

«سأرتبط بمشاري».

قفزت عليّ تقبلني. فاجأني موقفها، وصوتها الحبيب:

«سنحتفل بكما أنا وزوجي».

يومها اغرورقت عيناى بالدمع، احتضنتني ومعًا بكينا.

لكنّ صمتًا عابرًا غَشِيَ وجه شروق، حين أخبرتها قبل أيام:

نظرةً عينيها أشعرتني كما لو أنها تخفي شيئًا عني. ولأنني بقيت أنتظر تعليقها، سبقت دمعتها حملتها وترقرق حسّها وهي تدعو:

«ربنا يتمم بخير».

وتلوح على وجهها ابتسامة مسالمة، تغيّرت نبرتها وهي تقول:

«هدية زواجك ستكون مختلفة».

حتى السفر لم يكن مهمًا بالنسبة إليّ، لولا أنك اقترحتة، وابتسامة عابرة تغشى وجهك:

«نتعرف على بعضنا كأزواج».

أذكر أول سفرة جمعتنا قبل حوالي السنة.. كنا قد اتخذنا قرار زواجنا، وكنت قد أكدت لي مرارًا بأنه أقرب مما أتصور، ووعدتني بحسّ قلبك:

«أنتِ زوجة عمري».

وأقسمت لي أكثر من مرة:

«أنا لك، سأنفصل عنها».

يوم أخبرتني أنك مسافر إلى لندن في مهمة عمل، تحركت بي رغبتني لتجربة السفر معك. خاطبت أبي في جلستنا المسائية وبوجود أمي:

«لديّ دورة تدريبية في لندن».

لم تكن المرة الأولى التي أسافر وحدي.

«كم يومًا؟».

سألني بابا:

«أسبوع».

«ربما أحيء معك».

خفق قلبي، وأخفي تخوفي رددت مرحبة:

«الله الله، بابا معي في لندن».

لكنه ما لبث أن استدرك:

«ليس أكيدًا».

وتدخلت أمي:

«لن يسافر ويفارق سجنه».

كانت تقصد المكتبة، فهرَّ أبي رأسه وابتسامة أسى تلوّن وجهه:

«أنا مرتاح هنا».

وكما لو أنه ينهي الحديث قال:

«سافري بالسلامة».

بحجة معرفتي وتعاملي مع شركة طيران طلبت منك أن أرتب لك حجز تذكرتك وفندقك، فوافقت دون أي تحفظ. رتبت حجوزاتك، ولي رتبت حجوزات تماثلها دون علمك. اخترت فندقًا مجاورًا لي. تبلبلت وأرتبكت نظرة عينيك لا تعرف ماذا تقول وأنت تراني أدخل الطائرة قبل دقائق من إقلاعها لأجلس في المقعد الذي يجاورك.

«صباح الحب».

قلتُ لك والبسمة تلوّن حسّي. لكني لمحتُ شيئًا من ضيق المفاجأة يخمش وجهك، وتاليًا خمش روحي.

كنتُ أتوقع فرحك، وأن تمرّ الساعات البست بالحديث الهامس بيني وبينك، لكن ما إن أخذت الطائرة وضعها الأفقي حتى اعتذرت مني:

«لم أنم البارحة».

رتبت مقعدك ليستوي كالسرير، أمسكت بكفي تطبع قبلة عليها، قبل أن تلتف باللحاف وتخفي عني وجهك وتسقط في نومك، وأسقط أنا في خيبتني الأولى قائلة: «المكتوب يُقرأ من عنوانه».

الغربة تنزع عنا ثياب تحفظاتنا الثقيلة، وتجعلنا خفافاً يمكن أن نطير مع أول هبة كلمات. ربما المكان أو البشر أو الجو، وربما شعورنا بتحررنا من كل الرقابات التي تحجر على أرواحنا. ما إن حطت الطائرة على أرض مطار «هيثرو»، حتى شعرت أنني أتحول لفتاة أخرى.

لحظة نزلنا من الطائرة أمسكتُ بكفك، ومغماً سرنا ولو أنني كنتُ أشعر بأنك محرجٌ وخائف من أن يراك أي من معارفك وأنا متعلقة بذراعتك. كنتُ مأخوذة بأن أمارس حياة الحب معك، في المشية واللمسة والكلمة والبسمة والنظرة وشم عطرك، والتعرف على خبايا روحك. فالحب مشيٌّ على درب الحياة مع شخص تعشقه الروح.

كان جو لندن شتوياً، برودة تبلل المشاعر، وسماء قريبة ملبدة بغيومها الرمادية. خرجنا من المطار فوجدت سيارة مرسيدس جديدة بانتظارنا. أسرع سائق عجوز بملابس رسمية يسلم عليك بما يظهر علاقة وطيدة بينكما. خاطبك بلهجة ذكرتني بأفلام سينما الستينيات المصرية:

«الحمد لله عالسلامة يا سعادة البيه».

أحسستُ به يكتم تفاجؤه بي ممسكةً بذراعتك، ابتسم يرحب بي:

«أهلاً يا فندم».

فتح الباب لي، واستدار راکضاً يفتح الباب الآخر لك. تصوّرت أنه سبق أن مثل الدور نفسه مع نساء أخريات من اللاتي عرفتهن. مشاعر كثيرة تلاطمت في رأسي وأنا أجلس إلى جانبك.. رجل مرّت قرابة ثلاث سنوات على علاقتي به، وهو في كل يوم يعدني بالزواج. أجيء معه إلى لندن، بعد أن هلك من ملاحقتي، وتلهفت روحي له. أوصلتني إلى

فندقي. وقبّلتنني قائلاً:

«في السادسة أمرّ عليك».

قبل السادسة كنت بانتظارك أجلس في بهو الفندق ولا أكاد أسيطر على خفق قلبي. حين دخلت كان شيءٌ في نظرتك ووجهك قد تغيّر. طلبت منك الجلوس لكنك أجبت:

«لن نضيع وقتنا بالجلوس».

كانت الظلمة المبللة قد نزلت على شوارع لندن، السيارة المرسيديس السوداء والسائق كانا بانتظارنا. وما إن ركبنا حتى انطلقت السيارة. بدوت ليّنا يغشى الابتسام وجهك. قلت:

«هذه سفرة مختلفة».

«لماذا؟».

سألتك ناظرة إليك، فأجبت:

«لأنك معي».

أخذتني إلى بار صغير قريب من شارع «نايتس بريدج». طلبت بيرة، ونظرت إليّ، فتبسمتُ قائلة:

«مثلك».

حكيت لي عن عشقك للندن، وأنت لا تقوى على فراقها. وتعثّر لسانك بالرد حين سألتك:

«أي الأماكن تذهب؟».

بقيت مستمراً في قصصك، وتفاجأت حين أخرجت لك من حقيبة يدي تذكرتين، وأشرت إليك:

«إلى المسرح».

استغربت جملتي، وأوضح لك قلت:

«تعوّدت من أبي، حين أحيء إلى لندن أشاهد أكثر من مسرحية».

رحت تنظر إليّ فأكملت:

«حجّرت من الإنترنت تذاكر لأكثر من مسرحية».

كنت تنظر إليّ بشيء من الاستغراب:

«الليلة سنذهب لمسرحية شبح الأوبرا».

وأنهض ممسكة بك من يدك:

«هيا».

غبت أنا مع عالم المسرحية، لكنني أكثر من مرة اعتصرت كفك التي أحب، وقد داخلني شعور بأنك مشغول بفكرة ما. بعد انتهاء العرض كنتُ جائعة فأخذتك إليّ أول مطعم «بيتزا» قابلنا، ومن ثم تعلقت بك، وركبنا سيارتنا فخاطبت أنت السائق:

«إلى فندق المدام».

شيء ما كهرب روحي بتلك الكلمة، بثّ فيها ما يشبه عطرًا مدوّخًا. لحظة وصلنا الفندق أسرع السائق يفتح الباب لي، ونزلت أنتَ تسير إلى جانبي:

«أوصلك إلى الغرفة».

نظرة غريبة لاحت في عينيك لحظة كنا في المصعد، وحين وقفنا أمام باب غرفتي اقتربت لتقبّلني هامسًا:

«أجلس عندك قليلًا».

دخلنا غرفتي، فشملتني الحيرة لا أعرف ماذا أقول. جلست أنت على أحد المقاعد وجاء الصمت ليشاركنا اللحظة. وأدفع شيئًا من تبعثري سألتك:

«غرفتي أفضل من غرفتك؟».

ابتسمت قائلاً:

«أنتِ الأفضل».

نهضت لتخطو نحوي، أخذتني إليك ورحت تقبلني وأنفاسك الدافئة
تلفح روحي. كنتُ موزعة بين شوقي إليك وبين صدك. حاولت أنتزع
نفسي منك، فنظرت إليّ وقلت:

«نستطيع أن نتزوج هنا في لندن».

نَزَّ حَسَّك بلهفةٍ روحك. شعرتُ بقلبي يخفق بسرعة، فأضفت تهمس
بي:

«أنتِ حبيبة عمري».

وثانية عدت تحتضني تقبلني وأذوب بين يديك.

مشاعر كثيرة لعبت بي حين اندسست أنتِ إلى جانبي في الفراش..
تحافظ الفتاة على كنز جسدها سنوات طويلة، تعتني به وتجمّله ثم
يأتي من يقطف هذه الثمرة الغالية. كم اعتنيت ودلت زوايا جسدي،
وكم جمّلتها، وكم حاربت نفسي كي أنزل هذا الجسد في حضن رجل
أعشق ليكون زوجي.. كنتُ راعبة في أن تسجل ذاكرتي كل ما يدور
بيننا في تلك اللحظات.

تكلّمتنا همساً لبعض الوقت، ثم ملت عليّ تقبلني. ولأن روحي تفتّرت
بعطشها وانتظاراتها وتوترها، فإن مسام جسدي كانت تغور بحرٍ نيران
الرغبة. ولم يكسر عليّ استمتاعي معك، إلا سؤالك النافر:

«أنتِ بكر؟».

سكينٌ انغرس سؤالك في خاصرتي. فجأة خمدت رغبتني، آلمني أنك
تستخف بكرامتي، وآلمتني أكثر صيغة سؤالك، وكأنك كنت تتوقع أن
أكون غير ذلك. فأنا فتاة شرقية تربت على قناعة صون عرضها، وأن
تكون رعشة جسدها الأولى في حضن زوجها. تركتك في الفراش
ودخلت الحمام كي أبكي إهانتك لي وخيبتني فيك. ولأنك شعرت
بقسوة سؤالك طرقت الباب تنادي عليّ:

«كوثر، كوثر».

لم أردد عليك، فقلت:

«أنا آسف».

أطلت بقائي في الحمام، فلم أجِدْ في الغرفة عند خروجي؛ مما بعث الراحة في نفسي، وجعلني أغطي بحزني وأناام بمجرد وضعت رأسي على المِخدّة.

كان الوقت باكراً حين سمعت طرّقاً على باب غرفتي، وكم كانت دهشتي حين وجدتكَ تقف في مواجهتي حاملاً باقة ورد:

«صباح الخير يا كسلانة».

رحت أبخلق فيك، فقلت:

«أنتظرُ تحت».

كانت المرسيدس السوداء والسائق بانتظارنا. أخذنا إلى محطة «فكتوريا» وهناك قلت لي:

«سنذهب إلى مدينة برايتون».

قرأت في عينيك نظرة جديدة، شيئاً من حب وإقبال ومراعاة:

«قراءة الساعة بالقطار».

دار ببالي أنك تجرّ كسر الليلة الفائتة، لكنني انتبهت إلى أنك تسحب خلفك حقيبة صغيرة. فقفز مني السؤال:

«ماذا عن المؤتمر الذي جئت من أجله؟».

«أنتِ المؤتمر».

قلت ضاحكاً ترد عليّ.

حين وصلنا برايتون، وحده المطر كان باستقبالنا. ركبنا تاكسي فأعطيته أنت عنواناً. نزلنا عند أحد محلات «مارك أند سينسر»، قمت أنت بشراء الكثير من المواد الغذائية، استغربت شراءك فقلت لي:

«سنُمضي يومين هنا».

فاجأتني جملتك. أنا لم أحيّ بأي شيء للإقامة. وكما لو أنك هجست ما أفكر به، قلت:

«اشتري كل ما تحتاجين».

إحساس غريب ومنمل راح يدب فيّ ليعثرني، سأقيم معك في مكان واحد.. بدأت بفرشاة ومعجون الأسنان الذي أحب، وفرشاة الشعر، ومانع للتعرق، وزوج من الملابس الداخلية، ووقفت كثيرًا لاختيار بيجامة النوم. فأنا أحب بيجامات القطن الناعم، وهناك أكثر من «موديل» لفت نظري.

حملنا أكياس أغراضنا أنا وأنت؛ لأجد نفسي بعد أقل من عشر دقائق في شقة مرتبة ونظيفة تطلّ على شاطئ البحر، وصوتك:

«هذه شقتي».

قابلتني صور زوجتك وأطفالك، وصورك في ثوب التخرج في الجامعة، وصور عائلية لأناس لا أعرفهم. أدركت موسيقى هادئة، وبينما كنت أنا مشتتة وتائهة في تأمل الصور، دار ببالي لن نعود إلى لندن الليلة، ولن نذهب إلى المسرح.. ازدحمت عليّ أفكار كثيرة، لكنك خرجت لابسًا بيجامتك، وقلت لي:

«تعرفين الطبخ؟».

استغربت سؤالك، فأكملت تخبرني:

«أنا سأطبخ اليوم».

ابتسمت لك، وأنا أقف خلف النافذة أنظر إلى السماء الرمادية وهي تلتقي بسطح البحر في البعد. دار ببالي هل تأتي دائما بالنساء لشقة عائلتك؟ راحت صور زوجتك بنظرة عينيها الشاحصة تلاحقني من كل ركن في الشقة. استبدلت ثيابي ومعا دخلنا المطبخ. لأكتشف فيك رجلاً ولعاً بالطبخ، ملماً بأدق أسرارهِ، ومتمرساً فيه. إحساس غريب مرّ عليّ فاقشعر جسدي. كنتُ أتابعك وأنت تستخدم السكين وكيف تتفحص حبات الأرز في ماء غليانها، وتسخن قاع القدر بقليل من الزيت والبصل.. أعددت طبق سمك مع الرز، وربما كانت تلك الوجبة الألد التي تناولتها في حياتي.

بعد تناول الطعام، وقفت إلى جانبك لغسل الأطباق. شعور غريب راح يدبّ عليّ: أنتَ وأنا في مكان واحد. نمارس لحظات الحياة البسيطة بملابس البيت. قشعريرة ما عبرت جسدي، وشيء أشبه برائحة البكاء مرّ بخاطري. لكنني سرعان ما تنبّهت لوجود زوجتك معنا.. تخيلتها تدخل فجأة لتجدني معك بالبيجامة، وأتركك في المطبخ قصدت الصالة في مواجهة البحر الرصاصي. رميت بجسدي أحرق في لا شيء.. لا أدري من أين تسرّب نعاسٌ لذيذٌ إليّ، سحب جفنيّ بأثقال خفية، فوجدتني لا أقوى علي فتحهما. خرجت أنت من المطبخ، وما إن نظرت إليّ، حتى تبسّمت قائلاً:

«نعسانة».

أخذتني من يدي إلى غرفة نومك. رميت جسدي المثلث بالخدر والأفكار على السرير، وبعد لحظات شملت عطرك الأحب، وشعرت بذراعك تندس تحت رقبتني، احتضنتني إليك، وكطفلة صغيرة تكوّرت في حضنك وتركت لجسدي أن ينطلق من أسره.

على سريرك، في غرفة نومك، وبينما زوجتك تطلّ علينا من إطار صورتها المذهب، حضرت بي شهقة روعي الأولى، وانبتق خيط الدم الذي بقي محبوساً لما يزيد على الثلاثين سنة.

في شقة برايتون عشت معك أجمل ثلاثة أيام بلياليها، ليس لأننا مارسنا الحب كارق ما يكون ذوبان كل منا في الآخر، وليس لأنني تعرفت معك على معنى رعشة الحياة، وليس لأنني تذوقت طعم غفوة ما بعدها، وليس، وليس، وليس.. لكن، في شتاء برايتون الرمادي ومطرها عانقت روعي روحك، وذاق قلبي للمرة الأولى ألفة صداقة المرأة بالرجل، وحلاوة اللحظة العابرة حين تظللها هدأة الحب، ويكون الآخر ملء عينيك وحسك ويديك.. مساء الليلة الثانية، همست أنتَ بي:

«ولدت من جديد».

قُلْتَ بحسٍّ يقطر بالحب، وأكملت وشيء من التحسر في نبرتك:

«أين أنتِ من زمان؟».

ابتسمتُ لك، فأضفت:

«لن نفترق، ولن أبتعد عنكِ لحظة واحدة».

أجاديث كثيرة دارت بيننا، ومن بين يديك تذوقت أشهى الوجبات. وكنتُ أفرُّ من نومي أبقي ناظرة إليك غائباً في نومتك وأنفاسك. شيءٌ واحد ظل يكدر عليَّ لحظتي ويلكزني بين آن وآخر يُفسد عليَّ سرور روعي. وحده وجود زوجتك وأبنائك من حولنا بصورهم التي تملأ الجدران والأرفف. ولأكثر من مرة صعد بي السؤال: هل يحقُّ لي سرقة زوج من زوجته وعياله؟ وتشعب بي منحدرًا إلى وديان الوحشة: كيف أنتزعك من ماضٍ هو كل حياتك؟ هل حقاً لن نفترق؟ هل ستدوم اللهفة بيننا؟ يُخيفني ويتضخم بقلبي السؤال: من يترك زوجته وأطفاله كيف سيتمسك بي؟

في مساء اليوم الثالث، كانت الساعة تقارب الثامنة، وكنتُ أجهّز نفسي للخروج معك، حين قفز مني ذلك السؤال الشقي:

«تحب زوجتك؟».

كهريك السؤال، ومَرَّ بألوانه الداكنة على وجهك. لا أدري ما الذي أنطقني! ربما لأنني أعتقد باستحالة أن يُخلص رجلٌ لي، بينما هو زوج لامرأة أخرى! وربما لأن زوجتك كانت تحيط بنا في كل حركاتنا. وربما لأن سؤالاً آخر ظل يلاحقني منذ رأيته تشتغل في المطبخ: هل سبق وطبخت لزوجتك؟ وقد يكون شيءٌ من ذنب قد مسَّ روعي وأنا أتصور زوجتك في الكويت، تهتم بأطفالك وتنتظر عودتك، بينما تمارس أنت لحظات حياتك وجنونك مع امرأة أخرى.

«ممكن تنسين المرأة!».

خاطبتني والغيظ في كلماتك. عزَّ عليك ذكر اسمها، أو أن تقول زوجتي:

«لماذا أنتَ معي؟».

سألتك فخيَّط سكوت ملغوم فمك. عدت لاستنطاقك مع علمي بالإجابة:

«ما اسمها؟».

«لا دخل لك!».

صرخت بي، بينما جثت نظرة عينيك تنفجر بوجهي:

«تعشقين النكد! كيف سأعيش معك؟».

زلزمني سؤالك! فجأة حضرت روح شريرة لتحلّ بيننا. وجدتني لا أطيق النظر إليك، ومسرعة دخلت غرفة النوم لأرمي عنّي البيجامة، وكالمجنونة لبست ثيابي وحملت حقيبة يدي لأغادر الشقة وقد استجالت مغارة مظلمة. وربما لأنك كنت طافحًا بضيقك، تركتني أخرج دون أن تعترضني، بينما ظل سؤالك المؤلم يضرب بمطرقة فوق رأسي: كيف سأعيش معك؟

كوّمت البيجامة التي اشتريتها معك لأرميها في صندوق قمامة، قبل أن أركب القطار. كانت عبرة بكائي معلقة على طرف شفتي، ولو أن شخصًا طلب مني الانتقال إلى مقعد آخر لانفجرت بالبكاء. جاءت إليّ جملة أمي الموجهة:

«خلصوا رجال الكويت؟».

وظل سؤالك يهزّني: «كيف سأعيش معك؟».

لمت نفسي لتمسكها بك، واحتقرتها لأنني وضعتها في حضنك. ووددت لو أخمش وجهي بأظفاري لأنتقم من نفسي، فأنا قرأت عالمك منذ لقائنا الأول فلماذا مشيت معك؟

مشاري، أنا الآن في شفتي، ممددة فوق سريري، لا شيء معي سوى خفق قلبي وخوفي من شيء أجهله!

أنا وأنتَ سنعقد قراننا اليوم. ولا أدري كيف سأتخلص من هواجسي؟

لحظة عدت إلى غرفتي في فندق لندن، اندفعتُ بنحبي وبكائي ودموعي، أمسكت بي نوبة هستيرية من البكاء، وكأنني أكفر عن كل ما اقترفته معك. بعصبية حزمت أمتعتي وغادرت الفندق مسرعة خوف تأتي أنت إليّ. وحين رنّ تلفوني باتصالك، كنتُ أنا في مطار «هيثرو» في طريق عودتي إلى الكويت. وكالعادة تجاهلت اتصالك كارهة روعي بسببك.

مُفزع الفرق بين الرجل والمرأة! كيف يمكن أن تُخرج إنسانًا من نبض قلبك! المرأة تمنح جسدها للرجل بعد أن تثق روحها وتطمئن لصدق نواياه ووعوده المتكررة بألف صيغة وصيغة، ويكون ذلك بمنزلة عربون لصدق مشاعرهما، لكن الرجل يأخذ مراده من جسدها كفاتورة تمّ سداد

ثمنها وعودًا عابرة. المرأة ترى في الجنس البدء، والرجل يعدّه المنتهى.

أكثر ما أخافني عند عودتي إلى الكويت هي تلك النظرة التي شعت بها عينا أبي لحظة دخلت البيت، وقابلني قائلاً بهدوئه المعهود:

«الحمد لله على السلامة».

ويرمي عليّ جملته المزلزلة:

«فيك شيء متغيّر!».

أسرعت أخفي ارتباكي بابتسامة مكشوفة، تؤكد التغيّر أكثر مما تنفيه، قلت:

«لا شيء، ربما تعب السفر».

في اللحظة نفسها، ركض فكري يسترجع التغيّر الذي مسّ وجوه أخواتي وصديقاتي بعد زواجهن. ولحظتها دار بذهني: هل ينعكس حرمان المرأة أو ارتواؤها جنسيًا في عينيها، وعلى ماء وجهها وخطوتها؟

ابتعدت عن أبي أجرّ حقيبة سفري صاعدة إلى غرفتي، وقد شعرتُ بأن حائطًا جديدًا ارتفع يبعدني عنه.

شيء ما أخافني في تغيّر أبي، ونفْسٌ ثقيل ظل يجثم على صدري لأشهر، وأنا ألاحظ ابتعاده عن كل ما حوله، ولقد تأكد مساءً أبلغتني أمي:

«أبوك طلب رؤيتك أنتِ وأخواتك الليلة».

استغربت جملة أمي، فمساء كل يوم خميس تأتي أخواتي وأبنائهن لزيارتنا ويمكنن حتى منتصف الليل. ويقضي أبي بعض الوقت معنا، ويتناول العشاء قبل أن ينسحب إلى المكتبة.

حاملًا مطروفًا بين يديه، ومغطيًا وجهه بشيء من الوهن، دخل أبي علينا. تحاشيت النظر إليه. جلس فنهضت أخواتي للسلام عليه، وما إن انتهين حتى فتح المطروف واستخرج ورقة ونادى على أمي:

«هذه لك».

أعطاهـا وثيقة تملك «بيت الدسمة»؛ بيتنا الذي نعيش فيه، ثم أعطى
كلًا من جميلة وفاطمة وزينب وثريا وأنا ورقة مماثلة:

«هذه وثيقة تملك أرض».

أبي اشترى خمس أراض متجاورة في منطقة «جنوب السرة» لنا، كل
قطعة خمسمائة متر مربع:

«ترددت في إعطائكن المبلغ خوف ضياعه».

وسكت لثوانٍ قبل أن يضيف:

«دائمًا تمنيت أن تتجاوز بيوتكن».

شعرت أن أبي يتكلم بنبرة واهنة وغريبة أخافتني. فجأة خضَّ البكاء
صدري، وسرعان ما غصت بعبرة تكاد تخنقني. فنهضت مخفية
وجهي، أسرعت إلى غرفتي كي أبكي وداع أبي.

أقل من ثلاثة أشهر فصلت بين هبة أراضي أبي لنا أنا وأخواتي، وبين
انطلاق تلك الصرخة المرعبة.. لا يمكن أن أنسى ذلك المساء. كنتُ في
غرفتي، وكانت الساعة قرابة الخامسة والنصف حين انطلقت صرخة
أمي الملتاعة:

«أبو جميلة».

أخافني ذلك الحسّ المتوجع، رجفة غريبة أمسكت بركبتي. لا أدري
كيف ركضتُ إلى أمي لأجدها نصف واعيّة، ترمي بنفسها تقبل يدي
وقدمي أبي الممدد على فراشه. نادبة بجملتها:

«أبو جميلة حبيبي!».

ثقل غريب أمسك بقدمي يشدّهما إلى الأرض يمنعني عن الحركة،
تلاقت عيناها بعينيها المفجوعتين، فخفق قلبي وكأنني أرفض جملة
ملناعة لاحت مبللة بالدمع في عينيها. بقيت أنا مسمرة في مكاني،
وكانني أعجز عن الانحناء لألمس أبي. فدفعت هي وقد خارت قواها:

«أبولك».

تركت كلمتها مشرعة وكأنها تخشى أن تنطق بتكلمتها.

مات أبي بهدوء وسلام على فراشه. تقول أمي إنه بعد انتهاء الغداء، ولم تكن وجبة ثقيلة. قال لها:

«سأنام قليلاً».

وعلى عادته دخل فراشه، وحين استبطأته في جلستها أمام التلفزيون، نهضت لتتفقد، فوجدته بارداً في نومته. لماذا مات أبي بالسكتة القلبية؟ هل ضايقته أنا باختيار رجل مغاير لتوقعه؟ ما الذي فطّر كبد أبي؟ هل عجزت روحه عن معايشة مآسي الواقع العربي الجديد وفواجهه؟ هل مات بحسرة خيبة تحقق حلمه العربي؟ هل تهشم حلم أبي بصدرة؟ هل كان مآل الحراك الشعبي العربي مخيباً لرجل عاش يحلم بوطن عربي واحد، حتى قضى عليه وأماته؟ الطبيب قال:

«سكتة قلبية».

لا يمكن أن يفارقني ذلك المشهد، لحظة دخلت غرفة أبي، لأجده ممدداً على ظهره كاهداً ما تكون هيئة النائم. لم يكن وجهه يحمل أي آثار لألم أو توجع. سلامٌ غريب شغ من وجه أبي وهو يدخل نومته الأبدية. في تلك اللحظة وأنا أخشى الاقتراب من رجل كان الزاد لكل حياتي، وقفت على بعد خطوات، وكأنني أرفض الدنو منه ولمسه كي لا يتأكد موته. وقفت خائسة وكأنني تلك الطفلة التي تحرص على ألا تزعج أباه في نومه، لا شيء سوى سيل دموعي ورجفة ركبتني، سريعاً متداخلاً مرّ شريط عمري بصحبته، ولم أع نفسي إلا وأنا في فراشي وأختي جميلة إلى جانبي وقد عبث الحزن والبكاء في وجهها:

«كوثر حبيبتي».

كانت تحاول مواساتي، لكن كليتنا كان بحاجة لمن يواسي يتمه.

طوال اليومين الأولين للعزاء وأنا شبه منومة لا أعي ما يدور من حولي، تأتي النساء لتعزيتنا أنا وأمي وأخواتي وعماتي، بقيت صامتة لا أنطق بكلمة. وحدها ابنة عمتي خولة أعادتني للواقع مساء اليوم الثالث للعزاء، حينما خاطبتني بقولها:

«الحجاب جميل عليك».

رحت أنظر إليها وكأنني أحاول استيعاب حملتها فأضافت:

«عسى الله يهديك».

«ويهديك أنت».

أجبتها، فردت بقولها:

«أنا محجبة».

رمت عليّ عبارتها، وكأنها تعيّرني بسفوري، فقذفت عليها:

«أنتِ خولة التي أعرف».

كهربت جمليتي جلسة العزاء.. وكما لو أن خولة تأكدت من أنني سأفصح شيئاً من السفالة التي أعرف عنها، نهضت تهرب دون أن تنبس بكلمة. ولسان حالها يقول: الكلام سكاكين تصيبني في مقتل!

كل شيء بدا لي غريباً برحيل أبي من البيت. فجأة صار كل ما في البيت بارداً وخاوياً يصرخ بحضور أبي، وغدا حضوره في غيابه أشدّ وطأة على قلبي من غيابه في حضوره!

في السنتين الأخيرتين، أخذ الحراك الشعبي العربي أبي في رحلة أمل، لكنه سرعان ما قذف به على ساحل الأشواك والخيبة. لاذ بوحده وصمته وعزلته في مكتبته. كان لا يملّ الاتصال بأصدقائه في مصر وسوريا ولبنان ليطمئن عليهم. وكان بعد كل اتصال يزداد ألماً وبعداً عنا. ابتعد أكثر عني حين فاتحته أولاً بموضوع زواجي، وتالياً بموضوع انتقالي للعيش في شقة لوحدي. لكنه ما إن رحل عن البيت، حتى صارت كل زاوية تأتي به، تنطق بذكريات معي، وصار مروري بالمكتبة أو في صالة الجلوس اليومية أو مجيء أخواتي وأبنائهن لزيارتنا مساءات الخميس عذاباً لا أعرف كيف أتجرع مرارته!

صرتُ أشعر أن عينيه تطلان عليّ من كل زاوية، وكثيراً ما سمعت صوته الأحب ينادي عليّ. يفرّ قلبي، أقف متجمدة في مكاني أتلفت حولي وكأنني أستحضر روحه.. كنتُ كلما نظرت إلى لوحة وجدت عينيه الحبيبتين ترسمان في وسطها، وكم ظل يخيفني إحساسي بوجوده إلى جانبي كلما دخلت المكتبة. يساير خطوي حتى لأكاد أصطدم به!

لا أدري لماذا خطف الموت أبي، أو تراه أبي نادى عليه بعد أن مرض

بالأس من الأوضاع التي آلت إليها الانتفاضات الشعبية العربية! ولقد أثارت استغرابي سرعة عودة أمي لحياتها الاعتيادية، حتى أخواتي ظللن متأثرات لفترة، لكنهن ما لبثن أن عدن لأحاديثهن وانشغالاتهن بأزواجهن وعيالههن، وكأن دولاب الحياة الدائر لا يقف إلا عند محطات الأحياء تاركًا الموتى لصمت قبورهم.

وحدي افتقدت أبي، لكنه ظل يلاحقني يساير خطوي في كل زاوية في بيتنا. صرت أمشي وشعور خفي لا ينفك يلازمي بأني أسمع همسه ينادي عليّ: كوثر! ولم أحد مهربًا إلا إليك يا مشاري.

شيئًا فشيئًا عدت للحديث معك، ولأول مرة جئت أنت لزيارتي في مكتبي، بعد انقضاء أيام العزاء بأبي. قلت لي:

«عظم الله أجرك».

ولا أدري لماذا انخرطت ببكائي لحظة جاءت عينا في عينك، هل لأنني كنت محتاجة إليك، أو لأنني شعرتُ بأنك يمكن أن تعوضني شيئًا من فقد أبي؟ في المرة التالية، قلت لي:

«أتمنى زيارتك في كل وقت، لكني لا أودّ إزعاجك».

حملتك تلك حرّكت رغبتي ومشروعي في الخروج والسكن في شقة وحدي. فأنا كنت لحظة أخطو داخله إلى البيت يأتي همس أبي إليّ، وتروح عيناه تطلان عليّ من كل ركن، حتى إنني وفي مرات كثيرة كدت أتعثر به وأسقط في مشيتي، ومرارًا اجتاحني السؤال: لماذا يلاحقني حسُّ أبي وتخفق روحه فوق رأسي؟ هل تحاول طردي من البيت، أم تحاول استبقائي؟

اتخذت قراري بخروحي، يوم عادت أختي ثريا إلى بيتنا مطلقة مع ولديها وحاملة على صدرها ابنتها الصغيرة. قدومها للإقامة في بيتنا أبعدني تمامًا عن جلساتي مع أمي، وجعلني أقبع في غرفتي طوال فترة وجودي في البيت. فثريا، ومنذ حادثة البحر، أصرت على أن تتحاشى ما أمكنها الحديث معي، وقلما جمعنا مجلس واحد.

صارحتُ أمي:

«أود شراء شقة لي».

شلت الدهشة لسانها، وأؤكد عزمي قلت لها:

«أخذت الأذن من أبي قبل موته».

«تكذبين! أبوك لم يكن موافقاً».

صرخت بحدة بوجهي. تحيرت بماذا أردّ عليها. فذكرتها:

«أبي قال لي: بعد موتي أنت حرة».

رفضت أمي الفكرة، قالت:

«تزوجي واخرجي مع زوجك».

«أخرج وحدي».

أشعلت جملتي بعنادي جنون غضبها، فصرخت:

«عمك باقر يعرف كيف يؤدبك».

استفزتني جملتها، ودون تفكير قلت لها:

«الآن حسمت أمري».

صار انتقالي وعيشي في شقة وحدي يلوح لي بوصفه النجاة من الوجد: وجع ملاحقات وهمس روح أبي، ووجع صراخ وإهانات أمي التي لا تنتهي، ووجع وجودي في بيت واحد مع ثريا.. اقتنعت أن خروجي للسكن في شقة سيؤمن لي حياة صافية؛ حياة تخصني. لا أرمي بظلال ضيقي على أحد، ولا يثقل عليّ أحد بأي شيء. تافت روحي أكثر لأن يكون لي مكان أتحرّك وأعيش فيه بحريتي، دون أن ترصدني عين ويستوقفني صوت. وقلت أحدث نفسي: لا شيء يجمعني بأمي وأخواتي. نحن أسرة وأهل بالاسم فقط! صور كاذبة أمام الناس ولا شيء آخر، وما ضريّ لو اختلفن معي أو قاطعنني؟ وأطلق سؤالي بوجعي صرخت:

«معقول، لا أستطيع اختيار سكني؟».

وبجنون أكثر علا صوتي:

«مهزلة!».

كلفت مشاري بالبحث عن شقة لي تطل على البحر، وتكون في بناية جديدة، وأكدت عليه:

«شقة يزور البحر والشمس جنباتها».

باهتمام أقرب إلى الفرح استقبل مشاري رغبتي، وخلال أقل من أسبوع بدأ باصطحابي معه لرؤية أكثر من شقة، وكان يتصرف أمام حراس البنايات كما لو أننا زوجان.

اخترت شقة جديدة وواسعة في منطقة «السالمية» تطل على شارع الخليج العربي، ويدخل البحر بزرقته متلاًئلاً إلى غرفة النوم وصالة الجلوس. غرفتان وصالة جلوس وطعام واسعة وغرفة للخادمة.. لم أدفع من رصيدي في البنك، حصتي التي ورثتها من مال أبي كانت كافية لشراء الشقة. ولم أكن مستعدة لدخول دوامة المخططات والمقاولات وبناء قطعة الأرض التي وهبني إياها.. ربما بعثها في المستقبل بعد أن يرتفع سعرها!

«اتفقنا».

قلت لمشاري قبل أن أبلغ أمي بتوقيع عقد الشراء واستلام وثيقة التملك. وأول ما جاء على بالي لحظة استلمت الوثيقة فكرة إخراج أكبر عدد من لوحات بيت أبي الغالية، وجزء من كتب المكتبة، وكأنني بذلك أبرّ أبي وأبقي على وصل روحي به، وأحمل شيئاً من روحه المحبة للثقافة والفن معي إلى بيتي الجديد.

كم أتمنى لو أنك حيٌّ يا أبي لتأتي وترى شقتي! أنا متأكدة من أن ذوقي سيعجبك، وأنت ستحبها، وستجيء لزيارتي لنجلس معاً نتحدث عن أي رواية أو ديوان شعر كما كنا نفعل في مكتبك! وأظنك يا أبي ستحب مشاري متى ما عرفت لهفته عليّ وتعلقه بي.

مؤحشة الحياة دون أحبة يا أبي!

اليوم يوم زواجي، ومنذ فتّحت عيني وأنا ممددة فوق سريري في غرفة نومي، وسط دوامة الذكريات والخوف!

حين تيقّنت أمي بعزمي على شراء شقة، هددتني بقولها:

«باقر سيتصرف معك».

جاء عمي إلى البيت، وسألني بصراخه:

«صحيح ما تقوله أمك؟».

تغابيت عن قصده، رحت أنظر إليه، فقال:

«تشتريين شقة؟».

«أخذت الأذن من أبي».

«أبوك مات».

«هو باقٍ معي».

راح ينظر إليّ وكأنه يستسخف أو يحتقر ما أتفوه به، فأوضحت له:

«إن كنت لا تصدق فسأقسم لك».

تكلم عمي معي محاولاً التأثير عليّ:

«عيب بنت أسرة محترمة تترك بيت أهلها، وتسكن وحدها!».

كنت أستمع إليه:

«ماذا سيقول الناس عن وجودك في شقة؟».

ولأنه يعرف طبعي وحدة لساني، شعرت به يحاذر استفزازي، لكن أمي صرخت بي:

«لو كنت رجلاً لقتلتك».

وأنهض تاركة الجلسة قلت لها:

«لحكمة خلقك الله أنثى».

ودون مقدمات صرخ بي عمي:

«سنقتلك».

استغربت كلمته، رحت أنظر إليه، وأستوضح منه باستخفاف سألته:
«من أنتم؟».

«العائلة كلها».

جاءت كلمة طر على لساني لكني قلت له:

«سأنتقل إلى شقتي».

«أنتِ تتحدّين الأسرة».

عادت نبرة التهديد لحسّه ونظرة عينه، فأوضحت:

«لا أقترف خطأً، سأتزوج وأعيش مع زوجي».

«السني الحقير!».

نطق كلمته بطريقة أغاظتني، فكرت أردّ بأي شيء يحرق قلبه، ولم
أجد غير أن أقول:

«أحبه».

وأصدّ عن مسبته المقذعة التي قذف بها في وجهي، انسحبت إلى
غرفتي، وصوت أُمي يركض خلفي:

«ربنا يأخذك!».

أنا خائفة يا مشاري. لا أدري إلى أين سيأخذني زواجي منك. منذ
استيقظت وأنا أداري السؤال: ماذا لو تخلّيت عني بعد كل هذا؟

لحظة انتقلت إلى شقتي، داخلني شعور غريب بأنني اشتريت الشقة
التي أتمنى، فكيف أحيء برجل أعشق ليؤثث زواياها بأنفاسه
وحضوره ومحبته ورنه ضحكته؟ مسّ روحي شيء من أسي،
وهمست أصدّ قلبي: النقود أعجز من أن تأتي بالسعادة! صعد بي
السؤال: لماذا لم أعر على مشاري قبل زواجه؟ لكن ذلك الأسى
سرعان ما تحول لضيق أسود يخنقني!

ربما لأنني في الهُنا، وحدي في غرفة مكتبي المغلقة، ولا صوت يعكّر عليّ صفو خيالي. وربما لأنني أحب غناء السامري، يذكرني بأمي وصديقاتها، يأخذني لمراهقتي في منطقة «شرق» في «فريج: «القضيبي» ولاحقاً فريج «بورسلي». وقد يكون لسبب آخر، أمسك اللحن بي لحظة بدأت كتابة الرواية، تخيلتُ كوثر تتمايل بطولها اللافت، وهي ترتدي الثوب الزري، تتثنى بغصن جسدها، ترقص بتؤدة رقصة السامري:

قلت إلعي قالت أنا رياضية أبـا تعلـم لعبة الشباني

تلعب لافحة بشعرها الذهبي، تتحرك بخفة من يلعب الرياضة، تاركة لجسدها أن يعطي إيقاعاً للزمن، ويضفي معنى على المكان، ويكاد يخمط عيون الرجال وأفئدتهم.

هنا المجتمع يقمع المرأة في بوحها وتصريحها بحبها ووجعها؛ لذا حين تجتمع النساء في مجالس سمرهن ورقصهن، يتركن لانغلات أجسادهن أن يصرخ بما جُبنت وخرست اللغة عن قوله.

بالرغم من ألم الدسك في ظهري، والتنميل والخدر اللذين يسريان في ساقي، فلقد واصلت جلستي خلف شاشة الكمبيوتر، لم أنهض فاراً من الألم، ماشياً في دائرة غرفة مكتبي. أكملت طباعة الفصل علي عجل. ولحظتها انفتح جزء من باب مكتبي، وظهر وجه كوثر وقد تورد بابتسام حلو:

«مساء الخير».

خاطبتني عيناها، دافعة بجسدها من فرجة الباب، فنهضت لاستقبالها. خطت داخلة تلبس بنطلوناً قطنياً بلون كموني وقميصاً أبيض بكم قصير، مشيت نحوي تصافحني وتقبلني، فتعبدني لأيام ومساءات كثيرة كنت أمر فيها على أبيها للتلقي في المكتبة، أجدها جالسة معه فتسرع ناهضة تردد:

«عمو طالب».

آخذها إليّ أقبّلها وأدغدغها بقولي:

«صديقتنا القارئة الصغيرة».

على أثر دخولها، دلف مشاري بدشداشته وغترته وعقاله:

«مساء الخير».

نطق جملة بنبرة أقرب إلى التحفظ. صافحته مرحبًا:

«أهلاً وسهلاً».

جال بنظراته في زوايا الغرفة، وكأنه تفاجأ بصغرها وبساطة عالمها:

«تفضلاً».

جلسا فسألتهما:

«قهوة أم شاي؟».

قرأت انطباعاً أوحى إليّ بعدم ارتياحٍ مختبئٍ خلف نظرة مشاري وعلى وجهه.

«هذا حبيبي».

خاطبتني كوثر، وأكملت:

«وزوجي قريباً».

ضحكت ضحكتها الصافية التي أحب قائلة:

«قريباً جداً».

التفتُ أنظر لمشاري فبادرني:

«كوثر تحبك كثيراً وتحترمك».

«وأنا أحبها كابنتي».

«كان لابدّ أن أعرفك على مشاري».

عادت كوثر توجّه كلامها إليّ:

«أنت أقرب وأحب أصدقاء بابا».

وتحدّث مشاري قالت مبتسمة:

«يجب أن تقرأ روايات عمو طالب».

هزّ مشاري رأسه مؤيداً:

«طبعاً».

دار ببالي أسأل مشاري إن كان قد أنهى خلافه مع زوجته، أو انفصل عنها، فأنا لا أستطيع تصور رجل يتزوج فتاة بزعم أنه غارق في عشقها، بينما هو يعيش ويعاشر امرأة أخرى. لكنني ألجمت نفسي.

بدا واضحاً أن كوثر مغرمة بحبيبها.. حدثني قلبي أن مشاري ما زال متورطاً في توزيعه بين ارتباطه بزوجته وأطفاله وبين ولعه بكوثر.

«جئت أطلب يد كوثر منك».

رمى جملته عليّ بجرس غريب. وكما لو أنه رشّني بدلو ماء بارد. جمدت في مكاني لا أعرف بماذا أردّ عليه. أنا الذي استنطقت كوثر بخبايا حياتها.

بقيت صامتاً أحول نظرة عينيّ بينه وبين كوثر. فجأة تمطى صمتُ غرفتي الذي أعرف، استيقظ ليحط معنا.

«اطلب كوثر من نفسها».

قلتُ له كما لو أنني أهرب من المواجهة، والتفتُ أسأل كوثر:

«هل أخبرت أحداً من أهلك؟».

أسرعت تجيب:

«يعرفون ولا يعرفون».

«ليخطبك مشاري منهم».

طافت ظلال ضيق بوجه مشاري، وأسرع الحرج إلى وجه كوثر، قالت
بنبرة مترددة:

«أنت تعرف موقفهم».

«ومشاري؟».

سألتها، فانبرى هو قائلاً:

«أعرف.. كوثر صارحتني».

شعرت أنا بضرورة أن أوضح موقعي، فخاطبته:

«أنا مع علاقة الحب والزواج، لكن أتمنى أن تكون كوثر المرأة الوحيدة
في حياتك».

«أنا أحبها».

خاطبني بلهجة محايدة وباردة، هزّت شيئاً من تحسسٍ في خاطري.
فسكتُ لثوانٍ قبل أن أسأله:

«ماذا عن زوجتك؟».

فجأة تغيّرت نظرة عينيه، وأمسك الهلع بوجه كوثر. لكنني زدت تصميمًا
على سماع رده:

«لا علاقة لزوجتي بارتباطنا».

أجابني بضيق ونفور واضحين. استوقفني جملته. استغربت وقاحته
بصلفه. هو يدافع عن زوجته وعلاقته بها، بينما يأتي طالباً الزواج من
امرأة ثانية! رددت عليه بنبرة قاطعة:

«أنا لا أزوج ابنتي لرجل متزوج».

انخطف لون وجه كوثر. التفتت إليه وكأنها تحثّه على التدخل لقول

شيء ما. ويجاريها، بعث وضيق واضح يغشى نبرته:
«سأرتب الأمور».

تجاهلتُ جملته، خاطبتُ كوثر:
«لو كان أبوك حيًّا كيف سيكون موقفه؟».
والتفتُ إليه قائلاً:

«لا أعلم ما بينك وبين زوجتك. ووحدهم تقرر مسار حياتك».

عبث الانزعاج بوجهه. جاءت إليَّ صورته الرسمية في الجرائد. بينما
محت الخيبة تورد وجنتي كوثر. عادت تكلمني مبررة:
«سيطلقها».

فضّلت عدم الرد على كلمتها. وقلت منهيًا اللقاء:
«أتمنى الخير لكما».

مسنّي شعورٌ خاطف بأني مذنب، وأنني أشارك في الإساءة لامرأة لا
أعرفها، قد أدفع برجل لتطليق زوجته، وهدم استقرار أسرته وتشتيت
أطفاله. دار ببالي: إذا كانت كوثر تحبه فعلية
أن تستخلصه لنفسها، لكني لن أسامح نفسي إن ساهمت بهدم
سقف أسرة.

وخزت قلبي صورة أمي وهي تشكو لي بمرارة حرقه قلبها
وإحساسها بالضيق يوم غافلها زوجها الأول وتزوج عليها.. يرحمك الله
يا أمي، كم مرة قصصت عليَّ حكايتك الموحجة:

«نفرتُ من زوجي الأول يوم تزوج عليّ».

تترطب عينا أمي الحبيبتان وحسّها بالدمع:

«حرق قلبي بحرمانني من أطفالي، لكني لم أعد إليه».

حملت أمي صرة ملابسها تركت بيت زوجها، وعادت مكسورة الخاطر
إلى بيت أبيها، وتصميم عجيب يملأ قلبها، هي المرأة البسيطة

والمسالمة:

«لن أعيش مع رجلٍ تزوج عليّ».

حاول جدي عبثًا ثنيها عن قرارها، ضربها وهددها بالقتل، لكنها أصرّت على موقفها وهجر زوجها بالرغم من عشقها له. ظلت متشبّثة بكرامتها، تذرّف الدمع على فراق أطفالها الذي يكوي قلبها. طلقها زوجها بعد أن أهانت بهجرانه وترك بيته. بقيت سبع سنوات حبيسة بيت أبيها تجتر آلامها وتطفئ نار قلبها بدمعها الصامت، لحين تزوجت من أبي.

ضجّ الكدر بقلبي ولوّح الضيق وجهي. نظرتُ إليّ كوثر بينما يجلس مشاري إلى جانبها، ولأنها تعرفني فلقد فهمت مقصدي بإنهاء اللقاء، نهضت قائلة:

«نتركك للكتابة».

وخاطبني مشاري بنبرة لم أفك شفرتها:

«شكرًا على المقابلة».

«أهلاً وسهلاً».

رددت عليه.. وكما قبّلني كوثر في دخولها عادت تقبلني عند خروجها، لكنني شعرت وكأن أوراقاً يابسة تتمزق في صدري وصدرها. وددت لو أقول لها: ورطتك كبيرة!

شيئاً فشيئاً عاد الهدوء يتخلل هُناي في غرفة مكتبي، وعادت قرصات الدسك في ظهري، وتنميل ساقي، وما لبثت الوحدة أن هرعت إليّ تمسّد ضيقي. وكما لو أنها أرادت أن تعيدني لأجواء الكتابة، راحت تدندن باللحن:

قلتُ اوقفي لي وإرفعي البوشية

وما لبثتُ أن عدتُ إلى الرواية.

«حياتي الجديدة معك».

باكتمال عبارتك سيداً مشوار زواجك اليوم، وستنتقلين لعيشة مختلفة.

ما زلت ممددة فوق سرير نومك في غرفتك الهادئة. ربما كان هذا هو آخر صباح تكونين فيه لوحدة. لا تدرين كيف ستكون حياتك مع مشاري، وكيف سيوزع نفسه بينك وبين زوجته لحين انفصاله عنها، وابن سيلتقي بأطفاله؟ لا تتصوريه يدعوهم لزيارته في شقتك! مؤكداً أنه سيلتقي بهم في بيت أبيه أو ربما في مقهى أو مطعم في أحد الأسواق.

كأن الضيق يرمي بعباءته السوداء على وجهك.. إلى أين ستأخذك خطوتك بزواجك؟ ومخيف يهزك السؤال: هل الزواج تملك للآخر؟ تحلمين بأن يكون مشاري خالصاً لك. يستيقظ في فراشك، معاً تتناولان القهوة، وتختارين له ثيابه، ومن مبخر واحد تتبخران، قبل أن تقبلية خارجاً إلى عمله.

يعذب روحك أن يصير الوصول إلى أبسط الأشياء منالاً صعباً!

لا تتصورى كيف ستحتضنك هذه الشقة وزوجك، ومن سيأتي لزيارتكما. عمو طالب وزوجته شروق سيصطحبان الصغيرة فادية، ويأتون لزيارتكما ومنى وزوجها.. أخواتك، هل ستأتي إحداهن لزيارتك في شقتك، كما كنتِ تفعلين بزياراتك لبيوتهن؟

تحزن الأمكنة حين يتكدر خاطر أهلها. لو جاءت إحدى أخواتك فستفر فر روحك فرحاً بمقدمها. ستري لوحات بيت الدسمة على جدران شقتك، وستقولين لها: أنا وبابا نشترك في حب الفن التشكيلي.

تشعرين كما لو أن البحر ينادي عليك، وتلوح لك الحياة مغرية خارج أسئلة خوفك.

نتف قطن الذكريات، تتطاير من حولك لتملأ جو غرفتك، وكأنك تستحضرينها لنفضها عن قلبك، وتودعينها وداعك الأخير.

لاتدريين إلى أين سيأخذك قرارك اليوم، وما الذي ينتظرك في حضانة عيشة الزواج.. أرقام الساعة الحمراء تظهر: الساعة إلا ربعاً، صار يجب أن تنهضي.

ما كنتُ أظن أن حياتي كلها ستتغير حين أخرج للسكن في شقة لوحدي! كأني صرْتُ كوثرٌ مختلفة عن تلك التي تربت في بيت الدسمة. ما كنتُ أتصوّر كم أنا متعلقة ببيت أبي وأهلي! فطوال الشهرين الأولين، وما إن ينثر الليل رماد ظلمته على الأشياء، يلبسها ثوبه الأسود، حتى أشعر أن قلبي منقبض، وأن البكاء ينفخ في رقبتي. أحاول أن ألهي نفسي بقراءة كتاب أو متابعة فيلم تلفزيوني، لكنني كمن يخدع نفسه، ما تلبث أن تلتهم عليّ أترية الحزن، تعفر روحي بسخامها، فأهبّ من جلستي أدخل غرفتي وأبدأ بالبكاء. وكم سألت نفسي: ما الذي يُبكيّني؟

في إحدى المرات، اتصلت بعمو طالب، ولم أنتبه أن الساعة قد قاربت الحادية عشرة ليلاً، ردّ عليّ بصوت يبدو أقرب للنوم:

«ألو».

لا أدري كيف عجزت عن الرد عليه، خنقني بكائي، راح ينادي عليّ:

«كوثر.. يا كوثر..».

ولأنه شعر بأنني بحاجة، قال لي:

«أنا قادم».

جاء إلى شقتي مع شروق. قابلتهما بعينيّ الباكيتين، وما إن جلسا حتى سألني:

«ماذا حصل؟».

بقيت صامتة لا أعرف بماذا أردّ.. أخذتني شروق إلى غرفة نومي، وما إن احتضنتني حتى فضت ببكائي كالطفل. وحين عدنا إلى صالة الجلوس تكلمت مخاطبة عمو طالب:

«تعبت».

وبعد ثوانٍ أضفت:

«لا أعرف كيف أنهي قصتي مع مشاري».

بقيا معي حتى الثانية صباحا، أخرجت أمامهما كل هواجسي ومخاوفي، وقد اختلط الكلام بالبكاء. ظل وجه عمو طالب واجماً بتكشيرة لم أستطع تفسيرها، بينما شاركتني شروق البكاء، وقبل خروجهما قال لي:

«أنا وشروق معك».

«حبيبتي اتصلي بي في أي وقت، أو تعالي عندنا».

أوصتني شروق وقد بلل دمع طيبتها عينيها.

«القرار صعب، ولن يكون الثمن هيناً».

أمسك عمو طالب بوجهي بين كفيه، كما تعود أن يفعل معي في بيت أبي كي يقبلني، لكنه نظر في عيني قائلاً:

«أنت قوية وأنا معك».

قبّلتني واحتضنتني شروق، ولحظة أغلقت الباب خلفهما شعرت أنني بحاجة للنوم.

فرحت حين عثرت على بغيتي في منطقة «السالمية» على شارع الكورنيش. سجّلت وثيقة تملك الشقة باسمي في وزارة العدل. داخلني شعور أن مشاري فرح أكثر مني معتقداً بتوفر مكان للقائنا، والبدء بمرحلة جديدة في علاقتنا.

لم أخبر أمي ولا أخواتي، جاءت على بالي فكرة التأثيث، فقلت له بشيء من سرور:

«معاً نختار الأثاث».

سكتُ لبرهة قبل أن يُجيب:

«اختاري ما تشائين وسيعجبني».

آلمتني حملته، أنا التي حلمت ببيت يجمعني بمن أحب.. قدّرت أنه يخشى الظهور معي، ودار ببالي أن المرأة حين تكون على علاقة

برجل مرتبط بامرأة أخرى، تكون حساسة تخدش روحها أي كلمة تصدر عنه. بلغت ضيقي، فأضاف:

«سأدفع جميع تكلفة التأثيث».

ضايقتنني جملته الجديدة، فهو يظن أن نغوده ستُطفئ نار عتبي عليه، وستكون بديلاً كافياً لتحلّ محله. نظرت إليه وقد طفح الضيق بي، قلت له:

«أحياناً أكرهك».

وترددت أقول: أحتقرك. ولكي أكون أكثر وضوحاً وإمعاناً في رفض عرضه قلت له بحدة:

«لن أقبل منك فلساً واحداً للأثاث».

كيف لنا أن نعثر بأشخاص نجبهم، فيأتوا كما نشتهي؟ بعض مواقف أحببنا تخلف جراحاً عميقة في القلب وتتركنا نهباً للألم. وكم دار بقلبي السؤال: ما الذي يجبرني على البقاء مع الآخر واحتمال خيابه وقسوته وربما تفاهته، أم إنه الحب قدر أعمى يأخذ بأيدينا للسير على درب المواجه؟

بدأت أفكر بتأثيث شقتي، وأول ما جاء على بالي نقل بعض كتب مكتبة أبي لتكون بقربي. فصرت كل مساء أدخل المكتبة فتسرع روح أبي تأتي لتحوم فوق رأسي. تشاركني في جميع أفكاري وخطواتي. أقاوم بكائي فتبذل عيناى بدمعها صمماً بينما أنا أنتقل بين الكتب والروايات والدواوين الشعرية، تطير من حولي لحظات عمر حلوقضيته في حضن أبي بصحبة عوالمها. أحرص على ترتيب الكتب في أكياس، وبهدوء أنادي على خادمتي لنقلها إلى سيارتي.. كنت أعلم أنه لا أحد في بيتنا له علاقة بالكتب أو المكتبة، وكان يؤلمني إحساسي بأنني سارقة، أسطو على كتب أبي العزيزة وجريمتي الكبرى أنني مارست حقّي في اختيار مكان خاصٍ أعيش فيه. فركبت سفينة معيشة السر، ورحلة التحدي والوجع.

صديقتي منى شاركتني تأثيث شقتي. اتسعت عيناها وهي تبجلق في وجهي يوم أخبرتها بأنني اشتريت شقة لأعيش فيها وحدي، بعثت تسألني غير مصدقة:

«ماذا؟!».

«شقة في منطقة السالمية».

قدّرتُ تفاجأها فقلت أهوّن عليها:

«ما عدت احتمل مضايقات أهلي».

شرحت لها مناكفات أمي وصدود ثريا وصراخ عمي باقر. وقلت لها:

«عمري تعدى الثلاثين!».

حين هدأت، وكعادتها الحبيبة، نهضت من مقعدها جاءت لتقبلني:

«مبروك».

صعدت ابتسامة صافية لوجهها:

«أنا حاضرة لأي مساعدة».

شيءٌ من أسى ظل يمسك بخاطري طوال فترة التأثيث، واتخذت قرارى: لن أستقبل مشاري في شقتي إلا بعد أن أنهي كل شيء. رجاني مراراً، وبهدوء قلت له:

«لن تزورني الآن».

تأسف عما بدّر منه، وقال إنه مشغول لا يستطيع مصاحبتى لشراء الأثاث، وإن الرجال في أغلبهم لا يطيقون التسوق، ومراراً كررت عليه:

«أتدبر أمري».

بعد انتهائي من التأثيث وملتء مكتبتى بالكتب التي أحب، بقيت عليّ مهمة شاقة تتمثل في أخذ اللوحات التشكيلية من بيت أبي ونقلها إلى شقتي. أمضيت ساعات أتأمل لوحات الفنانين العرب الأهم؛ لأقرر أيها أحمل معي، ولأول مرة أنتبه إلى تعلق قلبي بها، وأن كل لوحة تمثل مرحلة من عمري! وحين استقر رأيي على اللوحات الأقرب إلى قلبي وربما الأعلى قيمة. وقفت أمام لوحة الفنان الكويتي أيوب حسين التي اخترتها أنا وأبي، فهي اللوحة الوحيدة التي تحبها أمي. ما كان من الممكن أن أتركها.. لذا اخترت يومًا يكون بيتنا خاليًا بذهاب

أمي إلى الشاليه، وأحضرت سيارة نقل وساعدتني مني لأقلع باللوحات الأحب، أصل بها إلى شقتي، وأعود مسرعة أنا ومني لنستخرج من المخزن لوحات أخرى أضعها مكان تلك التي أخذت.. كنت متأكدة أن أحداً لن يلاحظ الفرق، وبقيت مستعدة للرد على أمي لو تكلمت في الموضوع، لكنها وسط انشغالها بشكوى أختي ثريا ومشاكلها مع طليقها وضجة أبنائها، لم تنتبه لشيء.

طوال الفترة الماضية، ومع كل خطوة كنتُ أردد مع نفسي: مسكينة هي المرأة!

بعد موت أبي ما عاد من رجل في حياتي إلا مشاري. فليس لي من إخوة ولا علاقة لي بعمي ولا أولاده. مسكينة المرأة تهلك روحها حين تصر على نيل حقها ومواجهة مجتمع ذكوري يقمعها، كأنها تنشد إنجاز شيء من المستحيل. بخروجها على عادات وتقاليد اجتماعية بالية.

بعد أن انتهيت من تأثيث الشقة وتعليق الستائر وترتيب المكتبة واختيار أماكن اللوحات، بدأ شيء من الألفة ينعقد بيني وبين المكان، بدأت أحيي إلى الشقة التي اخترت وأحببت، أردد بصوت عالٍ وكأني أحاول أن أقنع نفسي:

«أنا ذاهبة إلى بيتي».

أتصل بمنى أخبرها:

«في طريقي إلى شقتي».

ومضة خوف مسّت قلبي حين حانت لحظة المواجهة. برز السؤال لي: هل أخبر أمي وأعطيتها العنوان لأثبت لها ولعمي وأخواتي أنني لا أملك ما أخفي عنهم، وأني على استعداد لاستقبالهم في أي لحظة، وأني اخترت الانتقال إلى شقتي لأنني أودّ العيش مستقلة في عالمي لوحدي. دارت الأسئلة ببالي، وفكرت بأن المواجهة لن تغيد بشيء، وربما كان من الأجدي لو انسحب بهدوء لأنتظر ما سيأتي. لكنني خشيت أن يقولوا: هربت لأنها خائفة لا تقوى على المواجهة، سرّبت لأمي في أحد المساءات بينما كنا نجلس وحدنا:

«اشتريت الشقة».

اشتعلت نظرتها غضباً وكأنها كانت تنتظر هذه الحرب. وكما لو أنها

أرادت التأكد سألتني:

«شقة؟».

«نعم».

قلت كلمتي بهدوء، وللحظة بدت هي أعجز من الرد، فما كان منها إلا أن اتصلت بأختي الكبرى جميلة وطلبت منها الحضور فوراً.

مسرعات جنن أخواتي كلهن: جميلة وفاطمة وزينب، ووحدها ثريا ظلت بعيدة مع أنها كانت موجودة في البيت. لا أدري لماذا تصورت جميلة في البدء أنني أمزح معهن، وأنني لا يمكن أن أقدم على خطوة مجنونة كهذه، وتغيرت نبرة صوتها وهي تسألني:

«لماذا تشتتين شقة وتسكنين وحدك؟».

بهدوء رددت عليها:

«لأنني أريد ذلك».

رحت أنظر إليها، بعثت تقول:

«من يضايقك هنا؟».

بدا لي سؤالها غيباً وأنانياً، وقد نسيت أنها تسكن بيتاً يخصها وزوجها! اهتز الانفعال في نبرة صوتها وهي تبين لي أن شرائي شقة وخروحي للسكن وحدي سيكون فضيحة، وسيؤثر علي علاقتهن، هي وأخواتي، بأزواجهن، وأن أي واحدة منهن لا تمتلك جرأة أن تخبر زوجها قائلة: أختي تسكن وحدها في شقة، وحتى عيالهن كيف يمكن لهم أن يتفهموا ويتقبلوا الأمر، وأن الكويت بلد صغير، سرعان ما ينتشر الخبر فيه، ويتحول إلى أقاويل شريرة. وتدخلت فاطمة، ظهر تأثير مفاجئ على حسنها وهي تطلب مني:

«أرجوك لا تخربي حياتنا».

ودون تفكير طفر سؤالني بوجهها:

«وماذا عن حياتي؟».

ران صمت مكهرب علي جلستنا. أسرعت إليّ سنوات طويلة عملت فيها مربية لأطفالهن، فأى واحدة منهن تودّ السفر مع زوجها في إجازة متعة واستجمام، ترمي بعيالها عليّ. لأنني غير متزوجة، وأنا أحب الأطفال، وأنا خير من يرعاهم ويلبي طلباتهم.. صحيح أن روحي كانت تهنأ بصحبة الأطفال، وصحيح أنهم كانوا يلونون لحظات يومي، وصحيح أنني متعلقة بأكثر من طفل فيهم، وأن غرفتي مليئة بصوري معهم، وصحيح وصحيح. لكن السؤال نفسه ظل يلكنني كنصل خنجر: متى ألعب مع أولادي، ومتى يتحول هذا النداء المحب:

«خالتي»؛

ليكون ماما؟

كنتُ كلما سافرت إحدى أخواتي وتركت عيالها معي لأيام، انقلبت تلك الأيام لتكون لحظات لعب ومرح وصحيج لا يهدأ. ولحظة احتضنهم لأودعهم، أقبلهم وصدري يجيش بالألم. أظل لأيام أعيش كآبة لا أعرف كيف أتخلص منها.

مشاري، اليوم سنكتب كتابنا، صحيح أنني متخوفة لا أدري إلى أين ستبحر سفينة زواجي معك، لكنني، ودون أن أخبرك، سأحمل بطفل شرعي منك، وسأسعد بأن أعيش معه بقية عمري!

مساء جئن أخواتي لمناقشتي بأمر خروجي إلى شقتي، خاطبتني أختي فاطمة:

«سيغضب عمي باقر، وأنت تعرفين تهور مهدي ولده».

راحت تتبين أثر حملتها على وجهي بتهديدها المبطن، فقلت بهدوء:

«عمي يعلم بأمر الشقة».

«سأتبرأ منك».

صرخت بي أُمي وكأنها تستخدم ورقتها الأخيرة، وأكملت بحرقه وقد تكسرت نبرة صوتها:

«إذا خرجت من هذا البيت فلن تدخله».

أُمي وأخواتي يتبرأن مني لأنني اخترت طريق حياتي، أقدمت على

الاستقلال بشقة لوحدي. حدثت نفسي والأسى يغشى صدري، بينما أنا أجلس بينهم. تمنيت لو أصارحهن: أنتن أنانيات تهملن حياتكن ولا تفكرن بحياتي.. سرعان ما تحول هذا الأسى لضيق أسود يملأ روحي وأنا أنظر لأمي زوجة الرجل الليبرالي المثقف الذي أمضى حياته في قراءة الفكر والأدب وصداقة الكتاب. وكما لو أن حجرًا يشج وجهي صعدت إليّ الفكرة: «هو لم يكن موافقًا على زواجي، ولا على خروجي من البيت!».

كرهت وجودي بينهم، فنهضت أترك مجلسهن قائلة:

«سأفرح باستقبال أي منكن في شقتي».

لحقني صوت أمي:

«سأبقى أدعو عليك».

«لا يهم».

رميت في وجهها لأغيطها، وأخذت طريقي إليّ غرفتي، ولا أدري لماذا شعرت وكأن درجات السلم لا تريد أن تنتهي.. أبي الرجل المتنور رفض زواجي، ورفض خروجي للعيش وحدي. أُمِّي وأخواتي يتبرأن مني، وعمي يهددني، ومشاري مصر على التمسك بزوجه.

«من يقف معك؟».

لحقني السؤال حين دخلت غرفتي رميت نفسي على سريري؛ فتمنيت لو أن السقف يطبق عليّ ويغيبني عن كل شيء.

معذورة لو خفت أنا! ومعذورة لو جاءت الأسئلة لتفجّ في وجهي.. لكن زواجي من حبيبي مشاري أفضل بكثير من بقائي معلقة في خيوط الهمز واللمز والأسى!

ليلة خلافي مع أُمِّي وأخواتي، حين أويت إلى فراشي سقطت في حفرة نوم مظلمة. رأيت نفسي أسير على أرض حجريّة وعرة، وأنني أحاول بصعوبة حفظ توازني، وكنت أتلفت مستغربة وجودي في مكان قفر لا بشر فيه، وأتساءل: أي الاتجاهات أسلك؟ وبينما أنا أتعثّر في مشيي رأيت أبي جالسًا بثوب مزركش زاهي الألوان على كرسي من كراسي مكتبته ممسكًا بكتاب بغلاف ملون. ناديت عليه لكنه تجاهل

ندائي وكأنه لا يسمعني. جعلت أسرع وأتعثر وأسقط ويشج الحجر راحة يدي وركبتي وأشعر بلزوجة الدم تبللني، بينما هو جالس كأهدأ ما يكون في مكانه. وحين وصلت إليه مدّ لي الكتاب ليختفي كما ظهر، وحين تصفحت الكتاب وجدته بصفحات بيضاء فارغة دون أي كلمة أو علامة.

في اليوم التالي كان عليّ أن أقرر موعد انتقالي إلى شقتي، فلقد نقلت جميع أوراقي وأغراض غرفتي، وكان مشاري قد أتعبني بملاحقته:

«متى؟».

عدتُ من عملي، وكالعادة جلستُ مع أمي للغداء، لكنها تحاشت أن ترفع عينيها إلى وجهي. شعرت أنها لا تأكل وأنها كانت مكهربة بانتظاري لتعرف إن كنتُ ما زلت مصممة على انتقالي. لا أعرف كيف بلغت لقماتي، لأصعد بسرعة إلى غرفتي.. سأترك بيت أبي دون رجعة.. ثقل ما نزل على قلبي وروحي. رحت أنظر إلى حوائط غرفتي فأرى عليها شريط عمري.. في غرفتي في بيت أبي في منطقة الدسمة أمضيت أكثر من ثلاثين سنة من عمري. في تلك الغرفة، عشتُ سنوات حياتي منذ كنت طفلة تدرس في المدرسة وحتى تخرجي في الجامعة وتوظفي في البنك.. كان أبي يأتي إلى سريري صباحًا، يردد عليّ بحسّه الأحب:

«كوثري».

في غرفتي قرأت أجمل الروايات والقصص، وشاهدت على شاشة التلفزيون الأفلام التي أحب، وأعدت مشاهدتها. وكنت أجيء بأبناء أخواتي ليناموا معي في فراشي، ونلعب معًا، ونملأ الغرفة بصراخنا وصراعنا وضحكاتنا. بين جدران غرفتي تعرفت على مشاري وأحبته وحلمت به.. كطفلة صغيرة اقتربت من الجدار لأضع خدي عليه، ونظرت إلى المرأة قائلة: «مع السلامة». وكما لو أنني أودعه، فتحت باب غرفة الحمام لألقي نظرتي الأخيرة عليه. شيءٌ ما أمسك بقلبي فسالت دموعي، وشعرت أنني لا أقوى على ترك غرفتي، وكأقسي ما يكون صعد بي السؤال: من أين يأتي تعلقنا بالمكان؟ ما السر الذي يربطنا إلى مكان بعينه؟ وكيف تتحول جدران صماء إلى هاجس ملجأ لا نقوى على البعد عنه؟ وانتزع نفسي من غرفتي، قلت وكأنني أبرر خروجي منها: أحبك!

حملت حقيبة يدي، وناديت على خادمتي، ونزلت لأجد أمي جالسة في مكانها:

«أنا ذاهبة».

قلت بصوت داعم. وكنتُ أخشى أن تنهض تقبلني فأنكسر عن قراري. لكنها ظلت بصمتها المتفجر، فمشيت أنا صوب الباب ليودعني صوتها:

«إلى جهنم».

تحاشيت الرد عليها، ودون أن أشعر انفجرت ببكائي وعويلي لحظة جلست خلف مقود سيارتي، وكأني أبكي وداعي لعمرٍ بأكمله، وبيت طالما عشقت.

هذا ما يُخيفني يا مشاري، أنا بعت أهلي وغيّرت حياتي من أجلك، فهل ستبيع وتغيّر حياتك مثلي، أم إن ساقبك غاطستان في طين زواجك وحساباتك الذكورية ولن تستطيع تخليصهما؟

في الأسبوع الأخير أطلّت نظرة غريبة في عينيك، حين سألتك عن سبب تغيّر قلبك بحسّ آفل:

«ليس سهلاً».

ولأني رحت أنظر إليك، أكملت:

«أفكر بأطفالي».

آه لو تدري ماذا فعلت بي حملتك تلك؟ لقد فكرت بالتخلي عنك، وإنهاء كل شيء بيننا. لكنك أنت من صمم على السير في درب العلاقة، ومطاوعتي بالزواج.

يوم ودعت بيت أبي، وجئت بصحبة خادمتي إلى الشقة، ولحظة دخلت أحسستُ وكأني أدخل المكان للمرة الأولى. بدت صامته وباردة. وبالرغم من وجود لوحات أبي تزين الجدران، خُيل إليّ وكأن الجدران عارية. وحين رمى الظلام بعباءته على وجه البحر، استشعرت وحشة غريبة، وتهيّبت النوم وحدي، حتى إنني فكرت أطلب من خادمتي أن تأتي بفراشها للنوم معي في غرفتي.

كنتُ جالسة أحاول لملمة روحي من ضياعي وحزني، فاتصل مشاري

صائحًا بصوت نشوته:

«أخيرًا».

استغربت تتبعه لي، وتصنعت تجاهل قصده، فقد كنت أنوي إخفاء خبر
انتقالي إلى شقتي عنه:

«مبروك الانتقال».

قال وفاجأني سؤاله:

«أنتِ في الشقة؟».

سكتُ لثوانٍ لا أعرف بماذا أردّ. لسبب كرهت فكرة أن يأتي لزيارتي.
وأنفجر بوجهه صرخت:

«أرجوك لا تتصل بي».

أغلقت تلفوني لأغرق بنوبة بكاء نمت على أثرها في مكاني على
الصوفا.

لماذا تأتي كل هذه الذكريات الموحجة عليّ في صباح يوم زواجي؟
اليوم أبلغ خط النهاية. أنا من اختار الدخول في هذا السباق، ولقد كان
سباقًا مُهلكًا وداميًا للروح، عمو طالب قال لي:

«أنتِ قوية».

لكن متى كان العناد بلا ثمن؟ ومتى كان المجتمع يتسامح مع من
يرمي حجرًا فيحرك مياة بركته الراكدة، ويخرج على عاداته البالية؟

اليوم، ربما بعد أقل من ساعتين سيمرّ مشاري بي ونذهب إلى قصر
العدل لعقد قراننا، رتبت أنا أمر الشاهدين، ولأنني لم أتصل بأمي أو
أخواتي منذ تركت بيت أبي، أفكر اليوم، وحال خروجنا من قصر العدل،
أن أكلّم أختي جميلة لأخبرها عن زواجي، وكذلك اتصل بعمو طالب
وشروق وبمنى وعمتي الطاف.

انتقالي إلى هنا أدخلني في حالة نفسية جديدة؛ ربما لأنني كنتُ
محتاجة لفترة كي أعود على العيش منفردة في مكان يخصني؛ وربما
لأنني شعرت بأنني ورقة يابسة تحملها الريح في سماء مغبرة؛ وربما

لأن الوصول إلى مرادٍ صعبٍ يخلق سؤاله الأصعب: وماذا بعد؟

منى كانت الوحيدة التي ظلت تأتي لزيارتي بانتظام، وعمو طالب وشروق والصغيرة فادية جاؤوا لزيارتي حاملين هدية، لوحة للفنان «عادل السيوي»، ووحدها عمتي الطاف جاءت مرة واحدة لزيارتي بناءً على رجائي وإلحاحي المتكررين، وأكدت عليّ مرارًا:

«لا أريد لأحد أن يعرف».

عمتي كانت أول إنسان من عائلتي يطرق باب شقتي للزيارة، ولأنها كانت قد تأخرت في ذلك المساء عن موعد المجيء، فإنني لحظة فتحت لها الباب والتقطت عيناى صفحة وجهها ودون أن أشعر، رميت نفسي بحضنها ورحت أنتفض بسعادتي ودموع بكائي، وكأني أعانق أبي.

كنتُ قد أعددت وليمة لاستقبالها، وكان بوذي أن تبقى معي أطول مدة ممكنة، لكنها لم تمكث معي أكثر من نصف ساعة. شعرت بها مهمة لسماع شيءٍ عن علاقتي بمشاري، لكنني كنت أريدها أن تطمئن بعد أن تراني في وضعي الجديد، ولكي أوضح الأمر لها قلت:

«سكني وحدي لا علاقة له بزواجي».

ولأن جملتي ظلت معلقة بيننا. شرحتُ لها رغبتى في أن أستقل بحياتي وعيشي في بيتٍ يخصني ليمرّ يومي بهدوء وسلام، وأنني ما عدت أطيع العيش في مكان واحد مع أم تهيئني وأخت تكرهني وتتحاشى النظر إليّ. وأنني سأسعد باستقبال أي فرد من عائلتي، فأنا لا أخفي شيئاً عن أحد.. أحسست وكأنها تعاطفت معي، لكنها قالت دون مقدمات:

«مشكلة بناتي».

لم أفهم قصدها، فأوضحت والألم في نبرتها:

«أنا وأبوهم لا شيء يكدر علاقتنا، سوى مشكلتنا التي تعرفين، شيعية وسني».

راحت تشرح لي أن أي شاب يتقدم لخطبة إحدى بناتها يقف عند توزعهن بين مذهب الأب السني ومذهب الأم الشيعي، وتندى عيناها

بالدمع همست:

«كبرن وأخاف عليهن من العنوسة».

واندس شيء في نبرة صوتها وهي تقول:

«البنات أنفسهن مختلفات؛ واحدة سنية والأخرى تريد أن تكون شيعية».

شكواها انحرفت بما كنت أفكر أن أقول لها. شعرتُ بها هي الأخرى منكسرة لا تدري سبيلًا يساعدها على الخروج من ورطتها. أوضحت هي أنني تحدثت أسرتي وأقدمت على خطوة كبيرة جدًا، وتلجلج حسها وهي تتمنى عليّ الحذر وعدم الوقوع في الخطأ. وتنهض منسحبة، قالت:

«سأفرح كثيرًا يوم زواجك».

على الأقل شخص واحد من أسرتي سيفرح اليوم بزواجي، وحدها عمتي الطاف التي تزوجت رجلًا سنيًا، والآن بناتها يدفعن الثمن قالت إنها ستفرح.. كم يبدو عزيزًا الفرح في دنيا مليئة بالمتاعب والحزن!

بعد انتقالي إلى هنا زادت ملاحظات مشاري واتصالاته، وتكرر طلبه:

«أودّ رؤيتك».

التقينا مساءً على الواجهة البحرية لمنطقة السالمية، في الممر المحاذي «للمركز العلمي». ألحّ هو عليّ لمعرفة السبب الذي يدعوني لرفض استقباله في شقتي. بقيت صامتة لأنني لا أدري سببًا جعلني أتخذ قرارًا، ودون مقدمات قلت له:

«تعال نذهب».

ظل لثوانٍ متفاجئًا وكأنه يتأكد من صدق جملتي، فأضفت مؤكدة:

«سأسبقك لتجهيز العشاء».

حين دخل عليّ الشقة حاملًا باقة ورد «جوري» أحمر، رأيته شخصًا آخر. وضع الورد على الطاولة، ورمى عقاله وغترته كاشفًا شعره الذي أحب، ونفخ بحرقه:

«أخيرًا!».

لم تعجبني كلمته. رحت أتابعه لأعرف ما خلفها، فسكت لفترة قبل أن يقول:

«أنا أحبك ولا يمكن أن أعيش بدونك».

بلا معنى بدت لي جملته. شيء^{١٥} ما فيها قال لي إنها رخيصة ومستهلكة، وإنها خرجت من سطح لسانه. ولكي أغير الموضوع، نهضت أفتح التلفزيون وأنادي على الخادمة:

«هاتي العشاء».

تناولنا العشاء أنا وهو والصمت، وصور التلفزيون البلهاء. مرّ شريط علاقتنا أمامي. وارتفع السؤال جرحًا في قلبي: هل هذا ما كنتُ أطمح إليه؟ شيء^{١٦} ما عكّر مزاجي، وحال شعرت أنه رفع يده، قلت له:

«شكرًا على الزيارة».

نهضت واقفة كي يفهم هو رغبتني في مغادرته، ولحظة أغلقت الباب خلفه، تنفست ملء صدري وكأنني أزحت همًا ثقيلًا عنه، وهطلت دموعي ليرتفع نحيبي!

من أين تأتي لهفتنا المجنونة علي لقاء أحبنا، وكيف تخبو، ويُطفئ ماء الوجع جمرتها المتقدة؟ شيء^{١٧} في نظرة مشاري وشي به، قال لي إنه ما عاد ذاك الرجل الذي يعشق نَفْسَ كوثر، ويتفطر قلبه شوقًا لملامسة يدها. في ذلك المساء، كنتُ جالسة أستحضر ملاحقاته لي منذ زيارتي الأولى له في مكتبه في الوزارة، حين رنّ جرس الشقة. للوهلة الأولى ظننت أنه قد عاد، لكنني تفاجأت بعمي باقر يقف سادًا فتحة الباب وقد شمل ضيق غريب وجهه:

«هلا عمي، تفضل».

قلت له مرجّبة وخوف مفاجئ يهجم عليّ. بادرني قاذفًا جملته:

«الله يسوّد وجهك».

احترت بماذا أردّ عليه. دار ببالي: هل كان عمي يترصد شقتي وداهمني بعد مغادرة مشاري؟

تذكرت الورد الأحمر، ترددت هل أدعوه للدخول، أم أغلق الباب بوجهه؟
وبنبرته المتحاملة أكمل يقول:

«لا تعتقدي أنك بعيدة».

ولكي أوقفه عن أي تكمله قاطعته قائلة:

«بابي مفتوح في كل وقت».

خفت أن ترتفع يده ويصفعني، خطوت ببطء إلى الوراء، جاعلة مسافة
تفصل بيننا:

«لم أعمل خطأ».

بعث صوتي وقد أمسكت الرحفة بقلبي: ماذا لو جاء عمي ومشاري
جالس معي؟

«أحذرك للمرة الأخيرة».

قال بلهجة متوعدة، وأكمل:

«لن نتركك تسودين وجوهنا».

رمى حملته في وجهي، وانسحب تاركًا الباب مشرعًا، وأنا واقفة
والرحفة في قلبي وركبتي.

قبل أسبوع، اتصل بي مشاري يشكو قلقه، وأنه لم ينم ليلته،
وسألني:

«كيف تصدقين أنني أحبك؟».

ابتسمت بيني وبين نفسي، وربما فهم هو صمتي، فقال:

«حددي اليوم ونتزوج».

بدت حملته مستهلكة وبلا معنى، فأضاف متحدًا عن علاقته بزوجته:

«تعلمين أننا منفصلان ولو أننا نعيش في بيت واحد».

ولأنني بقيت صامئة كعادتي، أكمل:

«تكلمت معها عن خطوات الطلاق».

احترت بماذا أردّ عليه. شيءٌ ما خفي عكّر صفو روحي وأنهى
المكالمة، قلتُ بحسّ مغلف بالضيق:

«شكرًا».

لماذا يتحول الحب لمحنة حياة؟ وكيف بقلبين يهوى أحدهما الآخر أن
يدمرا بعضهما؟

مشاري شكى لي مرة، وقد كسر الوجع نبرته:

«وضعي صعب».

سكت لثوانٍ قبل أن يضيف:

«لا أستطيع العيش بدونك، ولا..».

ترك حملته معلقة بحبال الهواء.. وبقيت أنتظره يفصح عن حرقه قلبه.

جاء لزيارتي أكثر من مرة، وأنا مصرّة على عدم استقباله..

في إحدى المرات فاجأني بمجيئه المتأخر.. جلست معه وهاجس
الخوف من مجيء عمي أو ولده يسيطر عليّ. بادرني
دون مقدمات:

«أحبك، وأنا مستعد لكل شيء تطلبين».

احترت وأنا أسمعه ينطق بحملته:

«هل سنُطلق زوجتك؟».

«نعم».

«متى؟».

«بانتهاء العام الدراسي للأطفال. أخاف أن تكون الصدمة كبيرة عليهم».

أَجْمَتَنِي جَمَلَتِهِ، وَأَجْهَزَ عَلَيَّ يُقْسِمُ وَتَوَجَّعَ حَسَّهُ:

«وَاللَّهِ لَمْ أَحِبْ امْرَأَةً بِحَيَاتِي كَمَا أَحْبَبْتُكَ!».

لأول مرة أشعر أنني ضعيفة، وأنني مشتتة لا أعرف ماذا أفعل.

أنا أعجز عن الوقوف في وجه مراقبة وزارات وتهديدات عمي باقر. وأنا ضعيفة أمام حبي لمشاري. وأنا أكره نفسي حين أفكر بضياح أطفاله.. مللت وجع قلبي، أنا، وأنا، وأنا.. فكرت أن ألجأ لشخص أبته حيرتي، ولأن أُمِّي وأخواتي تبران مني، وعمتي ألطاف بحاجة لمن يواسيها، لم يأت عليّ بالي سوى عمو طالب، لكنني تذكرت أنه في المرة الأخيرة التي قابلنا في مكتبه، صرح مشاري بضرورة أن يقرر علاقته بزوجته. ولم يبقَ لي إلا مني. تكلمت معها أكثر من مرة، وظلت تكرر عليّ:

«لا علاقة لكِ بزوجته، تزوجا وعيشا حياتكما».

كنتُ أعود إلى شقتي حال أنتهي من عملي. تقدم لي خادمتي الفلبينية الأكل وبالكاد أمدّ يدي إليه. ولا أدري من أين جاءتها شجاعة أن تقف أمامي سائلة والتردد في صوتها:

«Madam, don't loose your boyfriend».

أسرّنتني جملتها البسيطة هي المرأة الغربية القادمة من ثقافة مختلفة. أشعرتني بصدق مشاعرهما نحوي وتعاطفهما معي ومحبتهم لي ومعايشتهم لألمي. نظرت إليها باسمه، وقلت:

«We will marry».

كيف يمكن لتنفس الهواء أن يتحول لصخر يجرح الروح في دخوله وخروجه؟

فكرت أترك الكويت ودول الخليج جميعها وأرتاح من كل هذا الوجع المر. وسرعان ما جاء إليّ وجع آخر: سوريا تتدمر، مصر تغلي، بيروت تعيش هاجس الانفجار، وتونس والجزائر وصنعاء. فكرت في لندن وأمريكا.. شعرت أنني أهلوس، وتلسع قلبي الفكرة: «اقطعي علاقتك به، أو اقبلي بفكرة الزواج».

عمتي ألطاف على غير عاداتها اتصلت بي قبل فترة بينما أنا في

عملي، قالت إنها تودّ السؤال عني والاطمئنان على أحوالي، ومسّ
نبرة صوتها شيء من تلوّن وهي تقول:

«أخواتك يسألن عنك».

«يسألن؟».

قذفتُ عليها كلمتي فلبدت خلف سكوتها، وأسألها قلت:

«يسألن من؟».

ظلت بصمتها لتقول بعد ثوانٍ:

«ألن تعودي إلى بيتكم؟».

استسخت سؤالها، فأنهيت المكالمة:

«عفوًا، لديّ اجتماع بعد قليل».

ضايقني اتصالها، صبّ شيئًا من السواد على مزاجي وخاطري.
أخواتي يردن لحياتي أن تقف كي تسير حياتهن الزوجية هادئة
مستقرة. يسألن عن موافقتي العيش بينهن بشروطهن البائسة! أين
الخطأ في أن أعيش حياتي في مكانٍ يخصني ويحتويني بعالمي
البسيط؟ أسرٌ كثيرة تعيش تحت سقف واحد ولا يجمع بينها إلا النفور
والكره والخداع والعراك اليومي!

كنتُ موزّعة بين أن أنسى كل التفاهات التي تحيط بي وأنسجم مع
وضعي الجديد وأعيش يومي بوحدي كأهدأ ما يكون. أو أن أوافق
على الارتباط برجل له بيت آخر وامرأة وثلاثة أطفال؛ كي أضفي على
وجودي الأنثوي صفة الشرعية. ولأن شيئًا في فكري وقلبي رفض
الخيار الثاني، اتصلت بمشاري:

«أرجوكِ لننه علاقتنا».

فاجأته جملتي ربما كان ينتظر مني اتصالًا مختلفًا. ردّ بصوت متضايق:

«ماذا حصل؟».

أغلقت تلفوني وتمنيت لو أنني لم أره وأتعرّف عليه. ولمت نفسي

لأنني أخذتها لأهوال بحر الوجع وجررته هو ورائي. ولأنه يجنّ حين أتصل وأنهي المكالمة دون نقاش راح يتصل بي، فأغلقت تلفوني، ويهزّني السؤال: أين أذهب، ولمن أشكو محنتي؟ كيف يضيق بالإنسان العيش والمكان حتى يشعر أنه يكاد يختنق، وأنه عاجز عن التنفس؟ أي نار حامية تلهج وجوهنا حين نشعر أننا لا نستطيع الوصول لشخص نحب، ونستخلصه لأرواحنا المرهونة لعشقه؟

لاحت لي فكرة العودة إلى بيت أبي، فأسرعت أنكرها كونها أقرب إلى الجنون أو الموت! تمنيت لو أغمض عينيّ ومعها أسدل الستار على علاقتي بمشاري وأمحو كل شيء من قلبي وذاكرتي.

أنا كوثر، صديقاتي وزميلاتي في العمل يحسدونني ويقلن عني إنني ممثلة سينما، وإن جسمي كجسم عارضات الأزياء. امرأة أمتلك مالا من إرث أبي، وأعيش في شقة «ديلوكس» من اختياري، وأقتني أفضل الماركات في لبسي وساعاتي وأحذيتي، وأركب سيارة «بورش» آخر موديل. وكل هذا أعجز من أن يأتي بكسرة راحة للنفس!

أنا كوثر يركض الكثير من الشباب والرجال ورائي، لكنني الآن لا أكاد أتماسك، ويكاد منشار الحزن أن يقطع أوصال روحي! دار ببالي السؤال: ما الذي يأخذنا لدروب الوحشة، وما الذي يمرغ أيامنا في طين الأسى والألم؟ وهل يمكن أن يكون الحب سبباً وراء ذلك؟

أمي صرخت بي:

«خلصوا رجال الكويت؟».

حزنت على نفسي، وآلمني أنني أنا من ورّط مشاري معي. أنا من فكرت به، وذهبت إليه أول مرة.. هذه علاقتي أنا وحين أعلن هو استسلامه وقبوله بالزواج، رحت أفرض شرطي بتطليق زوجته وتحطيم أطفاله. كرهت نفسي، وكرهت تصميمي الأعمى على الماضي في هذه العلاقة البائسة. واستغربت كيف أن الوعي الإنساني يضعف ويمرض أمام الحب، ويلل وجهي الدمع وأنا أقرر: «سأقطع علاقتي به.»، لكنه هو من أصرّ على ملاحقتي، اتصل بي مكرراً الرجاء:

«أراك آخر مرة».

حين تقابلنا في مكتبي، بدا يائسًا، وما كاد يجلس حتى رمى بسؤاله وضيقه:

«ماذا تريد مني؟».

سكتُ لا أعرف بماذا أرد على سؤاله. فردد بنبرة ذابلة:

«أنا أحبك، كيف أثبت لك ذلك؟».

ولأنني بقيت ساكنة، أكمل بانفعاله ولوعة حسّه:

«سأطلقها وسأتزوجك».

بدا بئسًا ومنهارًا وحزينًا:

«لأكن صادقًا معك».

قال بنبرة منكسرة:

«في بداية علاقتنا كنت أنوي الوصول إليك، لكنني أحببتك».

رفع نحوي عينيه يخاطبني:

«ليس سهلًا على رجل متزوج أن يحب امرأة ثانية. اختل كل شيء في حياتي. ما عدت قادرًا على التركيز في أي أمر. أجلس معها وبين أطفالي فيأتي بك خيالي، وحين أهرب منهم أجيء إليك، أحتنق وأنا أرى وجوه أطفالي، تظهر لي لتنادي : بابا».

وتحشرج حسه، فخفق قلبي. لا أدري ماذا حصل لي وأنا أرى دموعه:

«أحبك».

أي دليل يهزّ قلب المرأة أكثر من بكاء رجل يحبها أمام عينيها؟ حاولت النهوض لاحتضانه لكنني لم أستطع فأشرت إليه:

«تعال».

وكالطفل نهض من مكانه، جاء إليّ ليرمي برأسه على صدري:

«تعبت يا كوثر».

«اسكت».

وضعت يدي على فمه لأمنعه من قول أي كلمة. بللتني دموعه،
وتمنيت لو أن تلك اللحظة تمتد بي حتى الموت.

«أرجوكِ لنتزوج ونرتج».

دفع جملته من بين دموعه.

«Madam»..

صوت خادمتي ينتزعني من لجة أفكار:

«قهوتك جاهزة».

الساعة السابعة والربع صباحًا. عليّ أن أنفض أسئلة الخوف عن فراشي، وأنهض أجهز نفسي بانتظار مجيء مشاري.. أمامي أقل من ساعتين ليمرّ عليّ ونذهب معًا إلى قصر العدل، بعدها يصبح زوجي بورقة رسمية، ويصبح بإمكانني أن أظهر معه في أي مكان عام ممسكة بيده، أصرخ أمام الجميع بالكلمة السحرية: زوجي!

منذ استيقظت فجرًا لا أزال خائفة، ولا يزال شيء من ضيق يمسك بي: هل سأضع اليوم حدًا لقصتي مع مشاري؟ وكم يخيفني السؤال: هل سيأتي يوم وألوم نفسي على قراري؟ وهل سأعفر لنفسي سعيي للزواج من رجلٍ متزوج وله أطفال؟

اليوم سأقبل الزواج بمشاري لأنه يحبني، ولأنني لا أستطيع العيش بدونه. أوافق بالزواج من رجل على علاقة بامرأة أخرى.. مثلي مثل نساء كثيرات في هذا العالم يجبرهن وضعهن الأسري أو الاجتماعي على بلع الموسيقى، وتجرع سم الصمت على وجود العشيقة أو الزوجة الثانية! يقبلن بالخضوع المر، والقبول برجل سبق لامرأة أخرى أن اقترنت به.

اليوم سأكتب ورقة عقد قراني على رجل متزوج، وبعدها سأستقبله في شقتي وسأشرع بابها على اتساعه بينما نحن نجلس معًا، وسأصرخ في وجه أي قادم: هذا زوجي.

اليوم سنقف أنا ومشاري أمام القاضي، ومؤكد أنه، حسب الشريعة الإسلامية، سيسألني عن ولي أمري الرجل: أبي أو أخي، وسأقدم له شهادة وفاة أبي، وحصر الورثة الذي يُثبت أن لا أخوة رجالاً لي، وسأطلب منه:

«أنت ولي أمري».

لحظتها سيكون أمر الموافقة على زواجي معقوداً بإرادته.

كم يُخيفني ويؤلمني، بعد أن تجرعت سم الوجد، وأقدمت على هجر أسرتي، أن أفف عاجزة عن تزويج نفسي بمن أحب، وسيبقى مستقبلي معلقاً بموافقة القاضي الرجل أو رفضه!

عمو طالب لن يوافق على هذه الزيجة، لكن لا عذر له. هو أب لابنتين وعليه أن يفكر بهما وكيف يمكن أن يتحطم مصيرهن لو واجهن ما أواجه. أعرف أن ابنته الكبرى الدكتوراة فرح تزوجت، ولكن ابنته الصغيرة فادية مقبلة على حياة في كتم السر. فهل سيكون مثل أبي ويتنكر لمبادئه وأقواله ورواياته ويقف ضد زواجها لو تقدم لخطبتها شاب شيعي وهي الفتاة السننية؟ وكيف تراه يتصرف لو أصرت هي على الارتباط برجل متزوج؟

حين أعود من السفر سأدعوه لزيارتي في شقتي بوجود مشاري.

سأخرج لسانني للحياة التعسة التي خطفت أبي في غفلة نومه، وسأجرب مغامرة العيش كما أحلم وأشتهي مع رجلٍ أحبته وولع هو بي.

كأن شيئاً يهزني، وكأن قلبي يردد: الحياة أقصر بكثير من أن نتهيب الخوض في طين دربها اللزج!

كنتُ جالسًا في الغفلة والهنا، خلف مكتبي أضحى التركيز وساقى المنملة، أفكر بكوثر، وكيف تراها ستكتب نهاية قصتها، حين انتهز اللحن لحظة الصمت، فحفّ أتياً إلى قلبي:

ملبوسها النغفوف واللحمية والثوب شاله ردفه القيطاني

ومعه جاءت مجالس حفلات النساء التي تسكن ذاكرتي. حين يفترشن الأرض على سجاد بلونين يعلقان بذهني، الأحمر والأزرق. تجلس النساء في صغين متقابلين، وتحتل صدر الجلسة نساء فرقة الغناء والدفوف بين أيديهن. وكما لو أنني أرى المكان وسط روائح الأحساد المشتعلة، أشمّ عطر الورد على ثوب أمي، أو دهن العود بشعرها. تأتيني ضجة المكان بأصوات كثيرة متداخلة، وأكاد، وأنا في هُناي الغارق بصمته، أسمع النقر الأول على الدفوف، يدوزن المكان ويحرك هداة الأرواح، وما يلبث لحن السامري أن ينبعث من بين ضرب الدفوف والتصفيق، تتبعه الأصوات المعطرة بالشجن!

أي صور يبعثها اللحن في رأسي، وأنا أحتلس رقص الفتيات الأجلجل بخفر عيونهن يتهادين بأثوابهن ولفح شعورهن؟ أي نداء يطلقه الجسد في حركته، وأي خفة تحمله للذوبان في اللحن؟

أغيب مع خيالي أتصور هيئة تلك المرأة التي خاطبها الشاعر متوسلاً رقصها.. أي ثوب يعدل ثوب لحم الجسد، وأي ثقل هين ذاك الذي يهتز والردف؟

الوحدة تؤنس روح من يُدرك كنهها، وتكون غولاً تُخيف من يكرهها، تكشف له عن وجه بشع، وقد تنشب أنيابها في لحم قلبه. لكنها صادقتني بعد أن تأكدت من أن روحي تهفو وتسعد بلقائها، وأن لا مكان يجمعنا ببوح كتاباتي ولذة قراءاتي سوى غرفة مكتبي هنا في المدرسة القبلية.

كل يوم على مدى خمس سنوات نجتمع أنا وهي وشيء من

الموسيقى الهادئة، وما يلبث أن يأتي الصمت ليشاركنا، يأتي خفيًا باسمًا، وكعادتي أهز رأسي أحيي قدومه. خمس سنوات كانت كفيلة بتوطيد علاقتنا، وكم همسا بي: نحن صديقان مخلصان لك.. وأبسم لهما أنني على رأيهما، قائلًا: لكل كاتب وحدته وصمته.

في هذا الهُنا، في هذه الغرفة الصغيرة تُركت وحدي كاتبًا ومهندسًا.. هناك من اعتقد بتجميدي، دون أن يدرك حجم الخدمة الكبيرة التي يقدمها لي!

هنا، كتبت مجموعتي القصصية «سرقات صغيرة»، وهُنا فكّرت وخطّطت واتصلت بأصدقائي لتأسيس «الملتقى الثقافي» ليكون صالونًا ثقافيًا في بيتي، وهُنا كتبت مجموعة «الكرسي»، وهُنا أعدت تصحيح ومسّ ونشر روايتي الأولى «ظل الشمس» بطبعتها الثانية، وهما أنا أوشك أن أنتهي من كتابة روايتي الجديدة.

هناك من ظنّ خاطئًا أنه يستطيع سجن كاتب بين جدران غرفة ضيقة، دون أن يدرك أن العالم فضاء مفتوح، وأني أمتلك الوقت ومعه حرية الكتابة، وأني سأصل بهما إلى أبعد مما يظن!

لولا هذا الهُنا الطيب، لما كنتُ أخطّ ما أنا أخطّه اللحظة!

هنا، في غرفة مكثبي صرْتُ أمضي أسعد وأهنا ساعات يومي.

وبينما أنا في جنة هذا الهُنا وعزلته، جاءني قبل أشهر عرض طيب من وزير الإعلام ووزير الدولة لشؤون الشباب بأن أكون مستشارًا ثقافيًا لوزارة الإعلام!

هنا ألتئم على خلاصي.. أجتمع بقراءاتي وكتاباتي وبهما خلاص روحي!

في زيارتهما الأخيرة أكدت لي كوثر ومشاري أنهما سيتزوجان. ما شئت أن أصدماها بقولٍ يضيقها؛ لذا فضلت أن أبقى قناعتني مستورة.

كوثر بنت صديقي وبطلة روايتي أراحت حرّ غطاءات قلبها وكشفت عن خوفٍ ووجعٍ روحها وقرارها، وهي عازمة على الزواج من صديقها حتى لو بقي مرتبطًا بزوجته الأولى.

البارحة عدتُ إلى البيت متأخرًا، ولحظة فتحت الباب وجدت أمي جالسة في صالة الاستقبال تنتظرنني. هيئتها بغستانها الأسود وفرق

شعر رأسها المخضب بالشيب. أرعشا خوفاً مفاجئاً بقلبي، فقلت:
بسم الله الرحمن الرحيم.

«تأخرت يا وليدي».

أمي، لقد صعدت روحك إلى بارئها في الثالث والعشرين من سبتمبر
٢٠٠٦، بينما كنتُ مع ابنتي فرح أثناء دراستها للماجستير في ولاية
«كولورادو» الأمريكية، سألتها بصوت راجف:

«ماذا حدث؟».

«يهرب النوم مني فأبقى أنتظرك».

بررت هي ونهضت تتكئ على عصاها.. لا أكاد أصدق عيني، كيف
عادت أمي إلى الحياة؟ اقتربت منها والرجفة في أعضائي، مددت يدي
لأؤكد من وجودها، أمسك بكفها التي أحب؛ لمساعدتها على الوصول
إلى غرفتها، قالت:

«مبروك تأسيسك الملتقى الثقافي».

حملتها جعلتني أستنكر وجودها أكثر؛ فأمي امرأة أمية لا تعرف القراءة
والكتابة، فكيف بها تزف لي تهنئة بتأسيس الملتقى؟ هل روح أمي
تتبعني وتلاحقني، تحصي عليّ أفكارني في كل منعطفات حياتي؟
كنت ممسكاً بكفها المعروفة وكأني أؤكد من وجودها، نمشي «بخطو
ثقيل»، وأكاد أسمع خفق قلبي بخوف مفاجئتي بحضورها، لحظة
عادت تخاطبني:

«تكتب رواية جديدة؟».

زلزلتني عبارتها. تجمدت في مكاني. صعب عليّ فهم نبذة حسّها إن
كانت تدينني أو تقف معي. لكنها ضغطت يدي تسحبني معها:

«تعال».

وقفت أنظر إليها، فوجدتني أقف أمام زوجتي شروق وسؤالها:

«لماذا تأخرت؟».

ترددت أخبرها أنني كنتُ أرى أمي مكانها. وتحوّفت أسألها إن كانت قد

أمسكت بكفي ومشينا معًا. ولأنها لاحظت اضطرابي قالت:
«ما بك؟».

«لا شيء».

أحببتها، وأحبّيت رعيشة ظلت ممسكةً بقلبي، صعدنا معًا إلى
غرفة نومنا.

هل تخيلتُ أنا رؤية أمي موضي البارحة، وهل عادت روحها لنقل
رسالةٍ ما إليّ؟

يا أمي لن أوافق على زواج كوثر من مشاري؛ لأنني أحبها كفرح ابنتي،
ومؤكد أنني سأوافق لو أن مشاري صار حبيبًا خالصًا لها.

«يا أمي لا دخل لي الآن في مصير كوثر. هي من كتب فصول روايتها!».

ولأنني قلت جملتي الأخيرة بصوت مرتفع، انتهت أنني جالسٌ هنا في
غرفة مكتبي أمام الكمبيوتر، وأن الوحدة صديقتي غافية على المقعد
أمامي، بينما صوت مكيف الهواء وحده يزعج
هدأة الصمت.

اليوم صباحًا، لحظة فتحت تلفوني وجدت أكثر من اتصال قد ورد لي
ليلاً من كوثر، بينما كنتُ نائمًا وجهاز تلفوني مغلقٌ. ساءلت نفسي:
ماذا تريد كوثر؟ أي خبرٍ مهم كانت ستزفه إليّ؟

كوثر ومشاري .. لا أعلم ما آلت إليه علاقتهما، ولن أكتب حرفًا واحدًا
إضافيًا عما خطته هي عن نفسها.

الكويت، ٢٠ فبراير ٢٠١٤

صدر للكاتب

● مجاميع قصصية:

(١) (أبو عجاج طال عمر)، دار الآداب، بيروت ١٩٩٢

(٢) (أغمض روعي عليك)، دار الآداب، بيروت ١٩٩٥

(٣) (مرآة الغبش)، دار المدى، دمشق ١٩٩٧

(٤) (حكايا رملية)، دار المدى، دمشق ١٩٩٩

(٥) مختارات قصصية (شمس)، سلسلة آفاق عربية، القاهرة ٢٠٠٥

(٦) (سرقا صغيرة)، دار الشروق، القاهرة، طبعة أولى ٢٠١١، طبعة
ثانية ٢٠١٢

(٧) (الكرسي)، دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٢

● كتابات روائية:

(١) (ظل الشمس)، طبعة أولى، دار شرقيات، القاهرة ١٩٩٨، طبعة
ثانية، دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٢

(٢) (رائحة البحر)، طبعة أولى، دار المدى، دمشق ٢٠٠٢، طبعة ثانية،
دمشق، ٢٠٠٦

(٣) (سمر كلمات)، طبعة أولى، دار المدى، دمشق ٢٠٠٦، طبعة ثانية،
دمشق، ٢٠٠٨، طبعة ثالثة، دار نوافلس، الكويت، ٢٠١٣

(٤) (الثوب)، دار المدى، دمشق ٢٠٠٩

● دراسات:

(١) (البصير والتنوير .. رجل وقضية)، دار قرطاس، الكويت ٢٠٠٠

(٢) (إسماعيل فهد إسماعيل، كتابة الحياة وحياة الكتابة)، المؤسسة
العربية للدراسات، ٢٠٠٩

(٣) (المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب)، الكويت ٢٠٠٤

● مسرح:

(١) مسرحية (عرس النار)، دار المدى، دمشق ٢٠٠١

(٢) (المسرح في الكويت .. رؤية تاريخية)، الكويت ٢٠٠٢

في الهُنا

طالب الرفاعي

تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

لوحة الغلاف للفنان عادل السيوي

الطبعة الأولى ٢٠١٥

تصنيف الكتاب: أدب / رواية

٨ ش-ارع سيوي-ه المص-ري

مدينة نصر - القاهرة - مصر

تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩

www.shorouk.com

رق-م الإيداع ٧٠٣٩/٢٠١٤

ISBN 978-977-09-3295-7

Table of Contents

- 1 -
- 2 -
- 3 -
- 4 -
- 5 -
- 6 -
- 7 -
- 8 -
- 9 -
- 10 -
- 11 -
- 12 -
- 13 -